المغني في التَّفْسِيرِ

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مُوسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ

د/ آلَاءِ رِضَا

غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

سُورَةُ يُوسُفَ

(المجلَّدُ الحادي عشرَ)

"هَذِهِ مُسْوَدَّةُ نُسْخَةٍ إِلِكْتْرُونِيَّةٍ، جَمِيعُ حُقُوقِهَا مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ.

لَا يُسْمَحُ بِنَشْرِهَا أَوْ تَدَاوُلِهَا إِلَّا بِإِذْنٍ كِتَابِيٍّ صَرِيحٍ مِنَ الْمُؤَلِّفِ."

نسخة إلكترونية

تَفْسِيرُ
سُورَةِ يُوسُف

سُورةُ يُوسُفَ

سُمِّيَت هذه السُّورَةُ بسورَةِ (يُوسُفَ):[1]

فعن عُقبَةَ بنِ عامِرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قُلتُ يا رَسولَ اللهِ، أَقْرِئْني سُورةَ هودٍ، وسُورةَ يُوسُفَ)) الحديثَ.[2]

وعن ابنِ مسعودٍ رضي اللهُ عنه، قال: (كنتُ بحمصَ فقال لي بعضُ القومِ: اقرأْ علينا. فقرأتُ عليهم سورةَ يُوسفَ).[3]

---

(1) وجهُ تسميةِ هذه السورةِ بسورةِ (يوسف): اشتمالُها على قصَّتِه كلِّها، ولم تُذكَرْ قصَّتُه في غيرِها، ولم يُذكَرِ اسمُه في غيرِها إلَّا في سورةِ (الأنعام) و(غافر).

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/255)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (2/185)، ((تفسير ابن عاشور)) (12/197).

(2) أخرجه النسائي (953) وأحمد (17418) وابن حبان (1842) والحاكم (3988).

صحَّح إسنادَه الحاكم (3988)، وجوَّد إسنادَه ابن مفلح في ((الآداب الشرعية)) (3/232)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (5454).

(3) أخرجه البخاري (5001)، ومسلم (801) واللفظ له.

وعن عمرِو بنِ ميمونٍ، في قصةِ مقتلِ عمرَ رضي الله عنه، قال: (وكان أي: عُمَر إذا مَرَّ بين الصَّفَّيْنِ قال: استووا، حتى إذا لم يرَ فيهنَّ خللًا تقدَّم فكبَّر، وربما قرأ سورةَ يوسفَ، أو النَّحلِ، أو نحوَ ذلك في الركعةِ الأُولَى).(4)

فضائل السورة وخصائصها:

1- أنَّها السُّورةُ الوَحيدَةُ التي أُفرِدَت لِقِصَّةِ نَبِيّ الله يُوسُفَ عليه السلامُ، ولم تُذكَرْ قِصَّتُه في غَيرِها.(5)

2- لم تُذكَرْ قِصَّةُ نَبِيٍّ في القرآنِ بمثلِ هذا الإطْنابِ كما ذُكِرَتْ قِصَّةُ يُوسُفَ عليه السَّلامُ في هذه السُّورَة، فهي أطوَلُ قِصَّةٍ في القُرآنِ.(6)

---

(4) أخرجه البخاري (3700).

(5) ينظر ((تفسير ابن عاشور)) (197/12).

وإذا قيل: ما الحكمةُ في عدمِ تكريرِ قِصَّةِ يُوسُفَ، وسَوقِها مَساقًا واحِدًا في موضعٍ واحدٍ دُونَ غيرِها مِنَ القصصِ؟ فالجوابُ: أنَّ قَصصَ الأنبياءِ إنَّما كُرِّرَتْ؛ لأنَّ المقصودَ بها إفادَةُ إهلاكِ مَن كذَّبوا رُسُلَهم، والحاجةُ دَاعِيَةٌ إلى ذلك؛ لتكريرِ تكذيبِ الكفارِ لرسولِ الله، فكلَّما كذَّبوا أُنزلت قِصَّةٌ مُنذِرةٌ بحلولِ العذابِ كما حلَّ على المكذِّبينَ، ولهذا قال تعالى في آياتٍ: فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ [الأنفال: 38] أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ [الأنعام: 6] ، وقِصَّةُ يُوسُفَ لم يُقْصَدْ منها ذلك، وقيل: لأنَّها اختصَّتْ بحصولِ الفرجِ بعدَ الشِّدَّةِ بخلافِ غيرِها مِن القَصصِ، وقيل غير ذلك.

يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (231/3).

(6) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (197/12)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (207/12).

قال محمد رشيد رضا: (وهي أطولُ قِصَّةٍ في القرآنِ افتُتِحت بثلاثِ آياتٍ تمهيدِيَّةٍ في ذكرِ القرآنِ وحسنِ قَصَصِه، ثُمَّ كانت إلى تمامِ المائةِ في تاريخِ يُوسفَ، وخُتِمت بإحدى عشرةَ آيَةً في الاستدلالِ بها على ما أنزلَها اللهُ لأجلِه مِن إثباتِ رسالةِ خاتَمِ النَّبيِّينَ، وإعجازِ كتابِه، والعبرةِ العامَّةِ بقَصَصِ الرُّسلِ عليهم السَّلامُ).

((تفسير المنار)) (207/12).

سُورَةُ يُوسُفَ مَكِّيَّةٌ. ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِد مِن أهلِ العِلْمِ.(7)

مِن أهمِّ مَقاصِدِ سُورَةِ يُوسُفَ:

1- بَيانُ أنَّ العاقِبَةَ للمُؤمنينَ المُتَّقِينَ الصَّابِرينَ رُغْمَ الابْتِلاءاتِ والمِحَنِ .

2- تَسْلِيَةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم وأَصحابِه، وتَطْمِينُ نُفوسِهم .

ذُكِرَت قِصَّةُ يُوسُفَ عليه السَّلامُ في هذه السُّورةِ مُفصَّلَةً في مكانٍ واحِدٍ، دونَ غَيرِها مِن قَصَصِ الأَنبياءِ، ومِن أبرَزِ ما اشتملتْ عليه هذه السورةُ مِن تفاصيلِ هذه القِصَّةِ وغيرِها مِن موضوعاتٍ:

1- ذِكْرُ جانبٍ مِن فَضائِلِ القُرآن الكَريم، وإعْجازِه في أُسلوب القَصَص وعَرْضِها.

2- رُؤْيا يُوسُف عليه السَّلامُ، ومَكْرُ إِخْوَتِه به، وحَسَدُهُم له وتآمُرُهم عليه.

3- انْتِشالُ السَّيَّارَةِ لِيُوسُفَ مِن الجُبِّ، وبَيْعُهم له، ومِحْنَتُه في قَصْرِ العَزيز، ومُراوَدَة امْرأَةِ العَزيز له، وشُيوعُ خَبَرِها، وما فعلتْه امرأةُ العزيزِ مع النِّسوةِ اللاتي تكلمْنَ بذلك.

---

(7) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الخازنُ، ومجدُ الدينِ الفيروزابادي، والبقاعيُّ.
يُنظر: ((تفسير الخازن)) (2/510)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/255)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (2/184).
وقيل: سورةُ يوسفَ مكِّيَّةٌ إلا الثلاثَ الأُوَل منها، قال السُّيوطي: (وهو واهٍ جدًّا لا يُلتفت إليه).
((الإتقان في علوم القرآن)) (1/59).
وقال محمد رشيد رضا: (وما قِيل مِن أنَّ الثَّلاثَ منها مدنيَّاتٌ فلا تصحُّ روايتُه، ولا يظهرُ له وجهٌ، وهو يُخِلُّ بنَظْمِ الكلامِ).
((تفسير المنار)) (12/206)، وزاد بعضُهم الآيةَ السَّابعةَ من هذه السورة.
يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (3/5)، ((تفسير الزمخشري)) (2/440)، ((الإتقان)) للسيوطي (1/59)، ((تفسير الشوكاني)) (3/5).

4- حادِثَة دُخولِ يوسفَ السِّجْنَ بعدَ ظُهورِ بَراءَتِه، ودَعْوَتُه إلى الله فيه.

5- الرُّؤْيا التي رَآها المَلِكُ، وتَفْسيرُ يُوسُف لها، وثُبوتُ بَراءَةِ يُوسُفَ، وخُروجُه مِن السِّجْنِ، واسْتِلامُه للمُلْكِ والوِزارَة، وظُهورُ شَأْنِه.

6- لِقاءُ يُوسُف بِإخْوَتِه دونَ أن يَعْرِفوهُ، وطَلَبُه حُضورِ أَخيهِم معهم في المَرَّةِ القادِمَة، ثم احْتِجازُه عنده بِحيلَةٍ دَبَّرَها بإلهامٍ مِن الله، وما حَصَل لِأَبيهِم بعدَ ذلك مِن الحُزْنِ.

7- لِقاءُ يُوسُف بإخْوَتِه مَرَّةً ثانِيَة، وكَشْفُه عن نَفسِه، وتَذْكيرُهم بما فعلوا به، وعَفْوُه عنهم، ثم أَمْرُهم بالعَوْدَةِ إلى أَبيهم، وإلْقاءِ قَميصِه على وَجْهِه؛ ليرجعَ بَصَرُه إليه.

8- حُضورُهم بعدَ ذلك إلى يُوسُف، واجْتِماعُه بِأَبَوَيْهِ وأَهلِه في مِصْرَ، وإكْرامُه لهم.

9- تَعْقيباتٌ على ما وَرَدَ في قِصَّة يُوسُف، فذكَر تعالى ما يَدُلُّ على أنَّ القُرآن مِن عند الله، وما يَشهَد بِصِدْقِ النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما يُبَلِّغُه عن رَبِّهِ، وبيَّن وَظيفَة الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم ومَوْقِف المُشرِكين مِن دَعْوَتِه، وأَنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم ليس بِدْعًا مِن الرُّسُل، وأنَّ العاقِبَة له ولِأَتْباعِه مِن المُؤْمِنين.

سُورةُ يُوسُفَ

الآيات (1-3)

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) نَحْنُ نَقُصُّ
عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3)

غريب الكلمات:

نَقُصُّ: أي: نُخبِرُ ونبيّنُ، والقصصُ: الأثرُ والأخبارُ المتُتبَّعةُ، وأصلُ (القصِّ): تتبُّعُ الأثرِ أو الشيءِ.

تفسير الآيات:

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1).

سبَبُ النُّزولِ:

عن سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((أُنزِلَ القرآنُ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتلا عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسولَ الله، لو قَصَصتَ علينا، فأنزل الله: الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ يوسُف: 1 إلى قوله تعالى: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ يوسُف: 3 فتلاها عليهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم زمانًا، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، لو حَدَّثتَنا، فأنزل الله: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا الزمر: 23 الآية، كلُّ ذلك يُؤمَرونَ بالقُرآنِ)).[8]

الر.

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المُقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ البَقَرةِ.

---

(8) أخرجه ابن أبي عاصم في ((المذكر والتذكير)) (ص103)، والبزار (1153)، وأبو يعلى (740) واللفظ له.
حسَّن إسنادَه ابنُ تيمية في ((مجموع الفتاوى)) (40/17)، وحسَّنه البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (222/6)، وابن حجر في ((المطالب العالية)) (126/4)، وصححه الألباني في ((صحيح الموارد)) (1462).

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ.

أي: هذه آياتُ القُرآنِ الواضِحِ مِن جهةِ أحكامِه، وألفاظِه، وسائِرِ ما حَواهُ مِنْ صُنوفِ مَعانيه، البَيِّنِ صِدْقُه، الذي يُفْصِحُ عمَّا أُبْهِم ويُبَيِّنُه.[9]

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2).

أي: إنَّا أنزَلْناه كِتابًا يُقرَأُ بلُغَتِكم- أيُّها العربُ- كي تعلَموا وتفهَموا مَعانيَه.[10]

كما قال تعالى: حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ الزخرف: 1 – 3.

---

(9) اختُلِف في المراد بوصف الكتاب بالمبين على أقوال: الأول: أنّ وصفه بالمبين مِن جهة أحكامه، وحلاله، وحرامه.

الثاني: أنّه وُصف بالمبين من جهة مواعظه، وهداه، ونوره.

الثالث: من جهة بيان اللسان العربي وجودته؛ إذ فيه ستة أحرف لم تجتمع في لسان.

ورجَّح ابنُ جرير (٦/ ١٣) العموم، فقال: «والصواب من القول في ذلك عندي أن يُقال: معناه: هذه آيات الكتاب المبين لِمَن تلاه، وتدَبَّر ما فيه مِن حلاله وحرامه ونهيه وسائر ما حواه مِن صنوف معانيه؛ لأنّ الله –جل ثناؤه– أخبر أنه مبين، ولم يَخُصَّ إبانتَه عن بعضٍ ما فيه دون جميعه، فذلك على جميعه، إذ كان جميعه مُبِينًا عما فيه».

وذكر ابنُ عطية (٥/ ٣٨) قولًا آخر، فقال: «ويحتمل أن يكون مُبِينًا لِنُبُوَّة محمد بإعجازه».

ثُمَّ رجَّح العموم، فقال: «والصواب أنّه مُبين بجميع هذه الوجوه».

(10) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٣٨) أنّ الضمير في قوله: ﴿أنزلناه﴾ عائد على الكتاب، ثم نقل عن الزّجّاج القولَ بأنّه يُراد به: خبر يوسف.

وانتقده (٥/ ٣٩) بقوله: «وهذا ضعيف».

ذكر ابنُ عطية (٥/ ٣٩) أنّ ﴿لعلكم﴾ تحتمل احتمالين: الأول: أن تتعلق بـ ﴿أنزلناه﴾، أي: أنزلناه لعلكم.

الثاني: أن تتعلق بقوله: ﴿عربيا﴾، أي: جعلناه عربيًّا لعلكم تعقلون؛ إذ هو لسانكم.

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3).

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ.

أي: نحن نقُصُّ عليك– يا محمَّدُ– أحسَنَ أخبارِ الأُمَم الماضيةِ؛ بإيحائِنا إليك هذا القرآنَ.[11]

وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ.

أي: والشَّأنُ أنَّك كنتَ– يا محمَّدُ– من قبلِ أن نوحيَ إليك هذا القُرآنَ، مِن جملةِ قَومِك الذين لا عِلْمَ لهم بما في القُرآنِ؛ من الإيمانِ والهُدَى، وأخبارِ الأنبياءِ والأُمَمِ الماضيةِ.

كما قال تعالى: وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ الشورى: 52.

وقال سُبحانه: وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ الضحى: 7.

(11) ذكر ابنُ تيمية (٤/ ١٧) أنّ المقصود بأحسن القصص هنا: الكلام الذي هو أحسن القصص، وهو عامٌّ في كل ما قَصَّه الله، لم يخص به سورة يوسف؛ ولهذا قال: ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾.
ولم يقل: بما أوحينا إليك هذه السورة، وأنّ الآثار المأثورة في ذلك عن السلف تَدُلُّ كلها على ذلك، وعلى أنّهم كانوا يعتقدون أنّ القرآن أفضل من سائر الكتب وهو المراد.

سُورةُ يُوسُفَ

الآيات (4–6)

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)

تفسير الآيات:

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4).

أي: اذكُرْ– يا محمَّدُ– لقَومِك حين قال يوسُفُ لأبيه يعقوبَ– عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ: يا أبتِ، إنِّي رأيتُ في المنامِ أحَدَ عشَرَ نَجمًا، والشَّمسَ والقمَرَ، رأيتُهم ساجدينَ لي.[12]

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله – ﷺ – قال: ((أكرمُ الناسِ يوسُف نبيُّ الله، ابنُ نبيِّ الله، ابنِ نبيِّ الله، ابنِ خليلِ الله)).[13]

قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (5).

---

(12) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٤١) أنّ القول بأنّ يوسف قد رأى كواكب حقيقةً والشمس والقمر، فتأوَّلها يعقوب إخوته وأبويه؛ هو قول الجمهور، وانتقد هذا القول الذي قاله قتادة، والضحاك، وسفيان، وابن زيد، والسدي، وابن جريج بقوله: «وهذا ضعيف».

وبيَّن أنّ ابن جرير ترجم بهذا القول، ثم أدخل عن قتادة والضحاك وغيرهما كلامًا مُحْتَمِلًا أن يكون كما ترجم، وأن يكون مثل قول الناس.

(13) رواه البخاري (4689) واللفظ له، ومسلم (2378).

قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا.

أي: قال يعقوبُ لابنه يوسُفَ: يا بُنيَّ لا تَقصُصْ هذه الرُّؤيا على إخوتِك، فيَحسُدوك، ويَحتالوا لك حيلةً ليَضرُّوك.[14]

إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ.

أي: إنَّ الشَّيطانَ لآدمَ وذريتِه عدوٌّ ظاهِرُ العَداوةِ، يَحمِلُهم على الحسَدِ والكَيدِ.

كما قال تعالى: وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا الإسراء: 53.

وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6).

(14) قال ابنُ كثير (٨/ ١٦ بتصرف): «واعلم أنّه لم يقم دليلٌ على نُبُوَّة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق [يعني: قولهم: ﴿إذ قالوا ليوسف ...﴾] يدل على خلاف ذلك.
ومِن الناس مَن يزعم أنّهم أُوحِي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مُدَّعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ [البقرة: ١٣٦]، وهذا فيه احتمال؛ لأنّ بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب؛ يذكر تعالى أنّه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالًا لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط مِن نسل رجل مِن إخوة يوسف، ولم يقم دليلٌ على أعيان هؤلاء أنّهم أُوحِي إليهم».

وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ.

أي: قال يعقوبُ لابنِه يوسُفَ: وكما أراك ربُّك في منامِك سُجودَ الكواكبِ والشَّمسِ والقَمَرِ لك، فكذلك يَختارُك ربُّك، ويَصطفيك للنبُوَّةِ.

وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ.

أي: ويُعلِّمُك مِن تعبيرِ الرُّؤى التي يراها النَّاسُ في مَنامِهم، وما يؤولُ أمرُها إليه، ومن معاني كتُبِ الله وسُنَنِ الأنبياءِ.

وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ.

أي: ويُتِمُّ نِعمَتَه عليك في الدُّنيا والآخرةِ، وعلى أهلِ مِلَّةِ يعقوبَ مِن ذرِّيَّته وغيرِهم، كما أتمَّ نِعمَته من قبلِ ذلك على أبوَيك إبراهيمَ وإسحاقَ[15] بالنِّعَمِ العظيمةِ في دِينِهم ودُنياهم.

إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

أي: إنَّ ربَّك عليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بمن يستحِقُّ إتمامَ النِّعمةِ، حَكيمٌ يضَعُ كلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به، ومِن ذلك حِكمتُه في تدبيرِ خَلْقِه.

(15) ذكر ابنُ كثير (٨/ ١٥ – ١٦) أنّ القول بأنّ الذبيح هو إسحاق قول مرجوح، ولم يذكر مستندًا.

سُورةُ يُوسُفَ

الآيات (7–10)

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (7) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا
وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ
أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (9) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي
غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (10)

غريب الكلمات:

عُصْبَةٌ: أي: جماعةٌ ذوو عدَدٍ، وعَددُها من العَشرةِ إلى الأربعينَ، وأصلُ (عصب): يدُلُّ على رَبطِ شَيءٍ بشَيءٍ، وسُمِّيَت بذلك كأنَّها رُبِطَ بعضُها ببعضٍ.

غَيَابَتِ الجُبِّ: أي: قَعرِ البِئرِ، والغيابةُ: كلُّ ما غاب، أو غيَّب عنك شيئًا، وأصلُ (غيب): يدلُّ على تستُّرِ الشَّيءِ عن العُيونِ، والجبُّ: البئرُ التي ليسَتْ بمطويةٍ، وأصلُ (جبب): يدلُّ على قَطعٍ، كأنَّها قُطِعت، ولم يحدثْ فيها شيءٌ بعدَ القطعِ.

السَّيَّارَةِ: أي: مارَّةِ الطَّريقِ مِن المُسافرينَ، وأصلُ (سير): يدلُّ على مُضيٍّ وجَرَيانٍ.

تفسير الآيات:

لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (7).

أي: لقد كان في قِصَّةِ يوسُفَ وإخوتِه الأحدَ عشَرَ عِبَرٌ ومواعِظُ ودَلالاتٌ للسَّائلينَ عن خَبَرِهم وقِصَّتِهم.[16]

إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ (8).

إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ.

أي: اذكُرْ- يا مُحمَّدُ- حين قال إخوةُ يوسُفَ فيما بينهم: واللهِ لَيوسُفُ وشَقيقُه أحبُّ إلى أبينا يعقوبَ مِنَّا، والحالُ أنَّنا جماعةٌ ذوو عَددٍ، فكيف أحبَّ هذينِ الاثنينِ أكثرَ مِن الجماعةِ؟![17]

إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ.

---

(16) قال ابن جرير: (لِلسَّائِلِينَ: يعني: السَّائلينَ عن أخبارِهم وقِصَصِهم.
وإنَّما أراد جلَّ ثناؤه بذلك نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذلك أنَّه يقال: إنَّ الله تبارك وتعالى إنَّما أنزل هذه السُّورة على نبيِّه يُعَلِّمُه فيها ما لَقِيَ يوسُفُ مِن أَدانيه وإخوَتِه مِن الحسَدِ، مع تَكرُمةِ اللهِ إيَّاه؛ تسليةً له بذلك ممَّا يلقى من أدانيه وأقاربِه مِن مُشركي قريشٍ).
((تفسير ابن جرير)) (17/13).

(17) بيَّن ابنُ جرير (١٣/ ١٨) أنّ العصبة: عشرة فصاعدًا، فقال: «والعصبة من الناس: هم عشرة فصاعدًا؛ قيل: إلى خمسة عشر فصاعدًا عشر، ليس لها واحد من لفظها، كالنفر والرهط».

أي: إنَّ أبانا لَفي خطأٍ واضحٍ، وذَهابٍ عن العِلمِ بالحقيقةِ والصَّوابِ في إيثارِه يوسُفَ وشقيقِه علينا بالمحبَّةِ، ونحن العَشرةُ أنفَعُ له منهما!

اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (9).

اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ بعضُهم لبعضٍ: اقتُلوا يوسُفَ أو ألقُوه في أرضٍ بعيدةٍ مِن العُمرانِ، يتفرَّغْ لكم أبوكم مِن شُغْلِه بيوسُفَ، ويُقبِلْ عليكم بكُلِّيَّتِه.

وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ.

أي: وتكونوا مِن بعدِ ما تفعلونَه بيوسُفَ قومًا صالحينَ، تتوبونَ إلى اللهِ مِن ذلك الصَّنيعِ.

قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (10).

قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ.

أي: قال قائلٌ مِن إخوةِ يوسُفَ: لا تقتُلوا يوسُفَ؛ فإنَّ قَتلَه أعظَمُ إثمًا.

وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ.

أي: واطرَحوه وغيّبوه في قَعرِ البِئرِ، يأخُذْه بعضُ المارَّةِ في الطَّريقِ مِن المُسافرينَ، إن كُنتُم فاعلينَ ما أردتُم مِن التَّفريقِ بينه وبين أبيه.

سُورةُ يُوسُفَ

الآيات (11-14)

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ
وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (12) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ
وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (13) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (14)

غريب الكلمات:

يَرْتَعْ: أي: يأكلْ وينَعَمْ، وأصلُ (رتع): يدل على الاتِّساعِ في المأكَلِ.

تفسير الآيات:

قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11).

قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ لأبيهم يعقوبَ عليه السَّلامُ، وقد عزموا على إلقاءِ يوسُفَ في قَعرِ البِئرِ:

يا أبانا لِمَ تخافُ منَّا على يوسُفَ، فلا تأمَنُنا عليه؟!

وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ.

أي: وإنَّا لناصِحونَ ليوسُفَ بالحِفظِ والرِّعايةِ والنَّفعِ له.

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (12).

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ.

أي: ابعَثْه معَنا غدًا يأكُلْ ويلْهُ، ويتنَزَّهْ في البرِّيَّة، وينشَطْ ويلعَبْ.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ نَرْتَعِ وَنَلْعَبْ بالنونِ فيهما، وكسرِ العينِ في نَرْتَعِ؛ بإخبارِ إخوةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ عن أنفُسِهم.(18)

2- قراءةُ يَرْتَعِ وَيَلْعَبْ بالياءِ فيهما، وكسرِ العينِ في يَرْتَعِ ؛ بإسنادِ الفِعلِ إلى يوسُفَ، والإخبارِ بذلك عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.(19)

وقراءةُ نَرْتَعِ ويَرْتَعِ بكسرِ العينِ فيهما، مِن الرعيِ، على معنَى: يَرتعِي ماشيتَنا، قيل: ليتدربَ على الرعيِ وحفظِ المالِ، أو مِن الرعايةِ، وهي الحفظُ، على معنَى: نرعَى ويحرسُ بعضُنا بعضًا.

3- قراءةُ نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ بالنُّونِ فيهما؛ بإخبارِ إخوةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ عن أنفُسِهم.(20)

4- قراءةُ يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ بالياءِ فيهما؛ بإسنادِ الفِعلِ إلى يوسُفَ، والإخبارِ بذلك عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.(21)

---

(18) قرأ بها ابنُ كثيرٍ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (293/2).

(19) قرأ بها أبو جعفرٍ ونافعٌ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (293/2).

(20) قرأ بها أبو عمروٍ وابنُ عامرٍ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (293/2).

(21) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (293/2).

والمعنَى على هاتينِ القراءتينِ: نَرْتَعْ ويَرْتَعْ بسكونِ العينِ فيهما– هو: اللهوُ والاتساعُ في أكلِ الفواكهِ وغيرِها.[22]

وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ.

أي: وإنَّا لحافِظونَ ليوسُفَ، وسنَحميه من أن ينالَه مَكروهٌ أو أذًى.

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (13).

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ.

أي: قال يعقوبُ لأولادِه: إنِّي ليَحزُنُني ذَهابُكم بيوسُفَ إلى البرِّيَّة، ويشُقُّ عليَّ غيابُه عنِّي.

وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ.

أي: وأخافُ أن يأكُلَه الذِّئبُ، وأنتم مَشغولونَ عنه، لا تَشعرونَ بذلك.

(22) يُنظر: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 193، 194)، ((معاني القراءات)) للأزهري (46/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 355)، ((تفسير الرسعني)) (282/3)، ((تفسير ابن عطية)) (224/3).

قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (14).

أي: قالوا لأبيهم: لَئِن أكلَ الذِّئبُ يوسُفَ، والحالُ أنَّا جماعةٌ معه، ولم نستَطِعْ حِفظَه من الذِّئبِ– إنَّا إذًا لعَجَزةٌ هالِكونَ، لا خيرَ فينا، ولا نفعَ منَّا.

سُورةُ يُوسُفَ

الآيات (15–18)

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (15) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (16) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (17) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (18)

غريب الكلمات:

وَأَجْمَعُوا: أي: عَزَموا، وصمَّموا، يقالُ: أجْمَعتُ على كذا، بمعنَى: عزمتُ عليه، وأجْمَعْتُ كذا: أكثرُ ما يُقالُ فيما يكونُ جمعًا يُتوصَّلُ إليه بالفكرةِ، وأصلُ (جمع): يدلُّ على تضامِّ الشيءِ.

نَسْتَبِقُ: أي: يسابقُ بعضُنا بعضًا في الرَّمْي، وقيل: نشتدُّ ونَعْدو؛ ليتبيَّنَ أيُّنا أسرعُ عَدْوًا، والاسْتِباقُ: التَّسابُقُ، وأصلُ (السبق): التقدُّمُ في السيرِ.

سَوَّلَتْ: أي: زيَّنَت وسَهَّلَت، والتَّسويلُ: تفعيلٌ مِن (السُّول)، وهو أمنيَّةُ الإنسانِ يتمنَّاها، فتُزَيِّنُ لطالِبِها الباطِلَ وغَيرَه مِن غرورِ الدُّنيا.

تفسير الآيات:

فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (15).

فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ.

أي: فلما ذهب إخوةُ يوسُفَ به من عندِ أبيه، وأجمعوا رأيَهم وعزَموا على أن يُلقوه في قَعرِ البئرِ، قاموا بفعلِ ذلك.

وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ.

أي: وأوحَينا إلى يوسُفَ لتُخبِرَنَّهم بفِعلِهم هذا الذي فعَلوه بك، وهم في حالٍ لا يعلمونَ فيها أنَّك أخوهم يوسُفُ.[23]

---

(23) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٥٢) في عود الضمير من قوله: ﴿إليه﴾ احتمالين: الأول: أنّه عائد على يوسف – عليه السلام –. كما في أقوال السلف.

والثاني: أنّه عائد على يعقوب – عليه السلام –.

ثم رجّح الأول بقوله: «وهذا أصح وأكثر».

ولم يذكر مستندًا.

قال ابنُ عطية (٥/ ٥٢): «ويحتمل أن يكون الوحي حينئذ إلى يوسف برسول، ويحتمل أن يكون بإلهام أو بنوم، وكل ذلك قد قيل».

ثم ذكر قولًا عن الحسن، وانتقده، فقال: «وقال الحسن: أعطاه الله النُّبُوَّة وهو في الجُبِّ. وهذا بعيد».

وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ (16).

أي: وجاء إخوةُ يوسُفَ– بعدما ألقَوه في غيابةِ الجُبِّ– أباهم يعقوبَ في ظُلمةِ اللَّيلِ يتباكَونَ على يوسُفَ.

قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (17).

قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ.

أي: قالوا مُعتَذرينَ كَذِبًا لأبيهم: يا أبانا إنَّا ذَهَبْنا نتسابَقُ، وترَكْنا يوسُفَ عند أمتِعَتِنا، فأكَلَه الذِّئبُ، ونحن غائبونَ عنه.

وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ.

أي: وما أنت بمُقِرٍّ ومُصَدِّقٍ لقَولِنا هذا، ولو كنَّا عندَك مِن أهلِ الصدقِ؛ لسوءِ ظَنِّكَ بنا، وتُهمتِكَ لنا.[24]

(24) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٥٤ – ٥٥) في قوله: ﴿ولو كنا صـــادقين﴾ عدة أقوال، فقال: «وقولهم: ﴿وما أنت بمؤمن﴾ أي: بمُصَدِّق.

ومعنى الكلام: أي: لو كُنّا موصوفين بالصدق.

وقيل: المعنى: ولو كنت تعتقد ذلك فينا في جميع أقوالنا قديمًا لَما صــــدَّقْتَنا في هذه النازلةِ خاصَّــــةً؛ لِما لَحِقَك فيها من الحُزْنِ، ونالك مِن المشقة، ولِما تَقَدَّم مِن تُهَمَتِك لنا.

وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (18).

وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ.

أي: وأتَوا بقَميصِ يوسُفَ مُتلطِّخًا بدَمٍ مكذوبٍ، يزعُمونَ أنَّه دمُ يوسُفَ حين أكَلَه الذِّئبُ.

وهذا قول ذَكَرَه الزجّاجُ وغيره».

ثم ذكر احتمالًا آخر، وعلّق عليه، فقال: «ويحتمل أن يكون قولهم: ﴿ولو كنا صادقين﴾ بمعنى: وإن كُنّا صادقين –وقاله المُبَرِّد– كأنهم أخبروا عن أنفسهم أنهم صادقون في هذه النازلة، فهو تمادٍ منهم في الكذب، ويكون بمنزلة قوله: ﴿أولو كنا كارهين﴾ [الأعراف: ٨٨] بمعنى: أو إن كنا كارهين».

وانتقد ابنُ عطية أن يكون هذا مثل قوله: ﴿أولو كنا كارهين﴾، فقال: «وفي هذا المثال عندي نظر».

ثم ذكر أنّ الرماني قال: «ألزموا أباهم عنادًا».

وانتقده بدلالة العقل، والنظائر بقوله: «هذا مِمّا لا يلزم؛ لأنهم لم يقولوا: وما أنت بمُصَدِّق لنا ولو كنا صادقين في معتقدك. بل قالوا: وما أنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين فيما نعتقد نحن، وأمّا أنت فقد غلب عليك سوء الظن بنا.

ولا ينكر أن يعتقد الأنبياء؟ صدق الكاذب وكذب الصادق ما لم يُوحَ إليهم، فإنّما هو بشر، كما قال – ﷺ –: «إنما أنا بشر، وإنّكم تختصمون إلي، فلَعَلَّ بعضَكم أن يكون ألحن بحُجَّته من بعضٍ؛ فأقضي له على نحو ما أسمع منه ...» الحديث.

فهذا يقتضي أنّه جوَّز على نفسه أن يُصَدِّق الكاذب.

وكذلك قد صدَّق – عليه السلام – عبدَ الله بن أبي حين حلف على مقالة زيد بن أرقم، وكذَّب زيدًا، حتى نزل الوحي، فظهر الحق؛ فكلام إخوة يوسف إنما هو مغالطة ومحاجة، لا إلزام عناد».

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا.

أي: قال يعقوبُ مُكَذِّبًا لأولادِه فيما زعَموا مِن أكلِ الذِّئبِ ليوسُفَ: ليس الأمرُ كما ادَّعيتُم، بل زيَّنَت لكم أنفُسُكم أمرًا في شأنِ يوسُفَ غيرَ ما تَصِفونَ.

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ.

أي: فصَبري على ما فعَلْتُم بيوسُفَ صبرٌ جَميلٌ، لا جزعَ فيه، ولا شكوَى إلى الخَلقِ.

وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ.

أي: وباللهِ أستعينُ على ما تذكُرونَ مِن الكَذِبِ.

سُورةُ يُوسُفَ

الآيات (19–21)

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (19) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21)

غريب الكلمات:

وَارِدَهُمْ: الذي يتقدَّمُهم إلى الماءِ لِيَستقيَ لهم، وأصلُ (ورد): يدلُّ على المُوافاةِ إلى الشَّيءِ.

فَأَدْلَى دَلْوَهُ: أي: أرسَلَها، والدَّلوُ: إناءٌ مَعروفٌ يُوضَعُ فيه الماءُ، وأصلُ (دلى): يدُلُّ على مُقاربةِ الشَّيءِ، ومُداناتِه بسُهولةٍ ورِفقٍ.

وَأَسَرُّوهُ: أي: أخْفَوه، وأصلُ (سرَّ): يدُلُّ على إخفاءِ الشَّيءِ.

بِضَاعَةً: البِضاعةُ: القِطعةُ مِن المالِ تُجعَلُ للتِّجارةِ؛ مِن: بَضَعتُ الشَّيءَ: إذا قَطَعْتَه، وأصل (بضع): يدلُّ على الطَّائفةِ مِن الشَّيءِ عُضْوًا أو غيرِه.

وَشَرَوْهُ: أي: باعُوه، يُقالُ: شَرَيتُ الشَّيءَ: إذا بِعتَه وإذا اشترَيتَه، فهو مِن الأضدادِ، وهو بمعنَى (بعتُ) أكثرُ.

بَخْسٍ: أي: ناقصٍ، وقيل: بَخْسٍ: بمعنى مَبْخُوس أي: منقوصٍ، والبَخْسُ والبَاخِسُ: الشيء الطفيف الناقص، يُقَال: بخسه حقَّه إذا نقصه، وأصلُ البخسِ: نقصُ الشيءِ على سبيلِ الظُّلمِ.

مَثْوَاهُ: أي: منزلَه ومقامَه، وأصلُ (ثوي): إقامة.

تفسير الآيات:

وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (19).

وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ.

أي: وجاءت جَماعةٌ مارَّةٌ في الطَّريقِ مِن المُسافرينَ، فأرسلوا مُقدَّمَهم الَّذي يَرِدُ الماءَ ليَسْتَقيَ لهم، فأرسلَ دَلوَه في البئرِ ليَملأَها، فتعلَّقَ يوسُفُ بالدَّلوِ وخرَج.

قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ.

أي: قال وارِدُهم حين رأى يوسُفَ: أبْشِروا، هذا غُلامٌ.[25]

(25) أورد ابنُ عطية (٥/ ٥٧) اختلافًا في عُمُر يوسف حين أخرجه السيارة من البئر؛ الأول: كان عمره حينئذ سبع سنين.
ورجّحه مستندًا إلى اللغة بقوله: «ويرجح هذا لفظة غلام؛ فإنه ما بين الحولين إلى البلوغ، فإن قيلت فيما فوق ذلك فعلى استصحاب حال وتجوز».
والثاني: كان عمره سبع عشرة سنة.
وانتقده بقوله: «وهذا بعيد».

وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً.

أي: وأخْفَى السيارةُ[26] أمْرَ يوسُفَ، وجعَلوه بِضاعةً مِن جُملةِ تجارتِهم، وعزَمُوا على بيعِه.[27]

(26) وممن اختار أن السيارةَ هم الذين أسرُّوا يوسفَ بضاعةً: ابنُ جزي، وأبو حيان، ومحمد رشيد رضا، وابنُ عاشورٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (383/1)، ((تفسير أبي حيان)) (252/6)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (223/12)، ((تفسير ابن عاشور)) (242/12).

وقيل: إنَّ الذين أسرُّوا يوسفَ بضاعةً: هم الواردُ ومَن كان معه؛ ونسبه الواحدي لأكثرِ المفسِّرينَ.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (53/12).

وقيل: إنَّ إخوتَه هم الذين أسرُّوا أمرَه وباعوه، وقالوا: هو بضاعةٌ لنا.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (422/2).

(27) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (98/3)، ((تفسير القاسمي)) (162/6)، ((تفسير ابن عاشور)) (242/12).

ومعنَى أسرُّوه: أخْفَوه مِن الرُّفقةِ، أو كتَموا أمرَه مِن وجدانِهم له فِي الجُبِّ، وقالوا: دَفَعه إلينا أهلُ الماءِ لِنبيعَه لهم بمصرَ. ((تفسير أبي حيان)) (252/6).

وقيل: إنَّهم أسرُّوا في أنفسِهم يتَّخِذونه بضاعةً لأنفسِهم أي متجرًا، ولم يخافوا مِن أهلِ الرفقةِ شيئًا.

ينظر: ((تفسير ابن عطية)) (229/3).

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ.

أي: واللهُ عليمٌ بما يعمَلُون بيوسُفَ،[28] ولكِنَّه ترَكَ تغييرَ ذلك؛ ليَمضيَ فيه وفيهم قَدَرُه السَّابِقُ في عِلمِه، وذلك بحسَبِ ما اقتضَتْه حِكمتُه سُبحانَه.[29]

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20).

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ.

---

(28) قال ابن عطية: (قوله: وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ إن كانت الضمائرُ لإخوةِ يوسفَ ففي ذلك توعدٌ، وإن كانت الضمائرُ للواردينَ ففي ذلك تنبيهٌ على إرادةِ الله تعالى ليوسفَ، وسوقِ الأقدارِ بحسبِ بناءِ حالِه).
((تفسير ابن عطية)) (229/3).
وقيل: وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ أي: بما يعمَلُه هَؤُلَاءِ السَّيَّارَةُ، وما يعملُه إخوةُ يُوسُفَ.
يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (223/12).
وقيل: قولُه تعالى: وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ يعمُّ الباعةَ والمشترينَ ليوسفَ.
يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (422/2).

(29) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (49/13)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 541)، ((تفسير ابن كثير)) (376/4).
قال القنوجي: (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ أي: بما يترتَّبُ على عملِهم القبيحِ بحسبِ الظاهرِ مِن الأسرارِ والفوائدِ المنطويةِ تحت باطنِه، فإنَّ هذا البلاءَ الذي فعلوه به كان سببًا لوصولِه إلى مصرَ، وتنقُّلِه في أطوارٍ حتى صار ملكَها، فرحِم الله به العبادَ والبلادَ خصوصًا في سِني القحطِ الذي وقَع بها).
((تفسير القنوجي)) (303/6).

أي: وباع السيارةُ يوسُفَ بثَمَنٍ منقوصٍ؛(30) دراهِمَ قليلةٍ مَعدودةٍ غيرِ وافيةٍ.(31)

---

(30) اختُلِف في قوله: ﴿بخس﴾ على أقوال: الأول: أنّه الحرام.

الثاني: أنّ معناه: الظلم.

الثالث: أن معناه: القليل.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٣/ ٥٣) مستندًا إلى اللُّغَة أنّ البخس معناه: النقص، فقال: «وأما قوله: ﴿بخس﴾ فإنه يعني: نقص، وهو مصدر مِن قول القائل: بخست فلانًا حَقَّه: إذا ظلمته، يعني: ظلمه فنقصه عمّا يجب له من الوفاء، أبخسه بخسًا، ومنه قوله: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ [الأعراف: ٨٥]، وإنما أريد بثمن مبخوس: منقوص، فوضع البخس وهو مصدر مكان مفعول، كما قيل: ﴿بدم كذب﴾ وإنما هو: بدم مكذوب فيه».

وبنحوه قال ابنُ عطية (٥/ ٦٠)، وكذا ابنُ كثير (٨/ ٢٣).

وانتقد ابنُ كثير مستندًا إلى دلالة العقل تفسير البخس بالحرام، والظلم في هذا الموطن، فقال: «وقيل: المراد بقوله: ﴿بخس﴾ الحرام.

وقيل: الظلم.

وهذا وإن كان كذلك لكن ليس هو المراد هنا؛ لأنّ هذا معلوم يعرفه كلُّ أحدٍ أنّ ثمنه حرام على كل حال، وعلى كل أحد؛ لأنّه نبيٌّ ابن نبي ابن نبي ابن خليل الرحمن، فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، وإنّما المراد هنا بالبخس: الناقص، أو الزيوف، أو كلاهما».

اختُلِف في مبلغ الدراهم التي بيع بها يوسف – عليه السلام – على أقوال: الأول: عشرون درهمًا.

الثاني: اثنان وعشرون درهمًا.

الثالث: ثلاثون درهمًا.

الرابع: أربعون درهمًا.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٣/ ٥٩) جوازَ جميعها، وعدم القطع بقول منها؛ لعدم الدليل عليه، فقال: «والصواب مِن القول في ذلك أن يُقال: إنّ الله –تعالى ذِكْرُه– أخبر أنّهم باعوه بدراهم معدودة غير موزونة، ولم يحدد مبلغ ذلك بوزن ولا عدد، ولا وضع عليه دلالةً في كتاب ولا خبرٍ مِن الرسول – ﷺ –.

وقد يحتمل أن يكون كان عشرين، ويحتمل أن يكون كان اثنين وعشرين، وأن يكون كان أربعين، وأقل من ذلك وأكثر، وأي ذلك كان فإنها كانت معدودة غير موزونة، وليس في العلم بمبلغ وزنِ ذلك فائدةً تقع في دين، ولا في الجهل به دخول ضُرٍّ فيه، والإيمان بظاهر التنزيل فرضٌ، وما عداه فموضوع عَنّا تَكَلُّفُ علمه».

(31) ممن اختار أنَّ الذين باعوا يوسفَ هم السيارةُ: ابنُ جزي، وأبو حيانَ، والبقاعي، ومحمد رشيد رضا، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (383/1)، ((تفسير أبي حيان)) (253/6)، ((تفسير البقاعي)) (37/10)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (223/12)، ((تفسير ابن عاشور)) (243/12، 244).

وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ.

وكان السيارةُ في يوسُف مِن الرَّاغبينَ عنه.(32)

ومن قال بهذا القولِ من السلف: قتادةُ، والحسنُ.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (2115/7)، ((تفسير ابن جرير)) (52/13)، ((تفسير ابن الجوزي)) (422/2).

وقيل: إنَّ الذين باعوا يوسفَ هم إخوتُه، وممن اختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، والسمعانيُّ- ونسبه لأكثرِ المفسرينَ-، والقرطبيُّ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (50/13، 53، 56، 59)، ((تفسير السمعاني)) (17/3)، ((تفسير القرطبي)) (155/9)، ((تفسير ابن كثير)) (377/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 395).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، والضحَّاكُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (51/13)، ((تفسير ابن كثير)) (377/4).

قال ابنُ كثيرٍ: (ولما استشْعَر إخوةُ يوسفَ بأخذِ السيارةِ له، لحقوهم، وقالوا: هذا غلامُنا أبق منَّا، فاشْتَروه منهم بثمنٍ بخسٍ).

((البداية والنهاية)) (232/1).

ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 395).

(32) وممن اختار هذا القولَ المذكور: البقاعي، ومحمد رشيد رضا، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير البقاعي)) (47/10)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (224/12)، ((تفسير ابن عاشور)) (244/12).

قيل: كانوا فيه مِن الزَّاهدينَ؛ لأنَّهم يُريدون التخلُّصَ مِن تُهمةِ استرقاقِه وبيعِه.

يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (224/12).

وقيل: لقلةِ معرفتِهم بالأسعارِ.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (244/12).

قال البقاعي: (مِنَ الزَّاهِدِينَ أي: كمال الزهدِ حتَّى رغِبوا عنه، فباعوه بما طفَّ، والزُّهدُ: انصرافُ الرغبةِ عن الشيءِ إلى ما هو خيرٌ مِنه عندَ الزاهدِ، وهذا يعيِّنُ أنَّ الضميرَ للسيارةِ؛ لأنَّ حالَ إخوتِه في أمرِه فوقَ الزهدِ بمراحلَ، فلو كان لهم لقيل: وكانوا له مِن المبعدينَ أو المبغضينَ، ونحوَ ذلك).

((تفسير البقاعي)) (47/10).

وممن اختار أنَّ إخوةَ يوسفَ هم الذين كانوا فيه من الزاهدين: ابنُ جرير، والواحدي، وابنُ كثير، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (59/13)، ((الوسيط)) للواحدي (605/2)، ((تفسير ابن كثير)) (377/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 395).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: الضحَّاك، وابنُ جريج.

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (21).

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ.

أي: وقال الذي اشترى يوسُفَ مِن بائِعِه بمصرَ لامرأتِه: أكرمي مَنزِلَه ومُقامَه عِندَك.

عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا.

أي: عسى أن يَكفيَنا يوسُفُ بعضَ أمورِنا، أو نجعَلَه ولدًا لنا بالتبنِّي.

وَكَذَلِكَ مَكَّنّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ.

أي: وكما أنقَذْنا يوسُفَ مِن إخوتِه، وأخرَجْناه مِن الجُبِّ، وصيَّرناه إلى الكَرامةِ والمَنزِلةِ الرَّفيعةِ عندَ عزيزِ مِصرَ، كذلك مكَّنَّا له في أرضِ مِصرَ، حتى بلغ فيها ما بلغَ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (61/13).

وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ.

أي: ولنُعَلِّمَ يوسُفَ مِن تعبيرِ الرُّؤى- التي يراها النَّاسُ في منامِهم- ومعاني كتُبِ الله، وسُنَنِ الأنبياءِ، مكَّنَّا له في الأرضِ.

وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ.

أي: واللهُ غالِبٌ على أمرِه سبحانَه، يفعَلُ ما يشاءُ، فلا يُرَدُّ أمرُه ولا يُمانَعُ، ولا يُنازَعُ فيما أرادَه، ومِنْ ذلك ما يتعلَّقُ بيوسُفَ عليه السَّلامُ مِنَ الأمورِ الَّتي أرادَها اللَّهُ سبحانَه في شأنِه.(33)

كما قال تعالى: وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ الرعد: 41.

وقال سُبحانه: فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ البروج: 16.

---

(33) قال ابنُ جرير (١٣/ ٦٥ - ٦٦): «وقوله: ﴿والله غالب على أمره﴾ يقول -تعالى ذِكْرُه-: واللهُ مستولٍ على أمر يوسف؛ يَسُوسُه، ويُدَبِّره، ويَحُوطه.

والهاء في قوله: ﴿على أمره﴾ عائدة على يوسف».

ثم ذكر قول سعيد، ولم يُعَلِّق عليه.

وذكر ابنُ عطية (٥/ ٦٢) في عود الضمير من قوله: ﴿أمره﴾ احتمالين: الأول: أن يعود على يوسف.

كما ذهب إليه الطبري.

الثاني: أن يعود على الله تعالى.

حكاه عن ابن جبير.

وعلّق عليه قائلًا: «فيكون إخبارًا مُنَبِّهًا على قدرة الله – عز وجل –، ليس في شأن يوسف خاصة، بل عامًّا في كل أمر.

وكذلك الاحتمال في قول الشاعر:

رأيت أبا بكر وربك غالب ...

على أمره يبغي الخلافة بالتمر».

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلمونَ أنَّ اللهَ غالِبٌ على أمرِه، وأنَّ تدبيرَ الأمورِ بيَدِه، ولا يَدرُونَ حِكمَتَه في خَلقِه، وتلَطُّفَه لِما أراد سُبحانَه.

سُورةُ يُوسُفَ

الآيات (22–29)

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (25) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (26) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (29)

غريب الكلمات:

بَلَغَ أَشُدَّهُ: أي: بلغ مُنْتهَى شَبابِه وقُوَّتِه، والأَشُدُّ قيل: جمعٌ لا واحدَ له، وقيل: مفردُه شَدٌّ، وأصلُ (شدد): يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ.

وَرَاوَدَتْهُ: أي: أرادَتْه على ما تُريدُ، والمُراوَدة: مُفاعَلةٌ مِن راد يَرودُ: إذا جاء وذهبَ، وهي عِبارةٌ عن التحَيُّلِ لِمُواقَعتِه إيَّاها.

هَيْتَ: أي: هَلُمَّ وأقبِلْ إلى ما أدعوك إليه، يقال: هَيَّتَ فلانٌ لفلانٍ؛ إذا دعاه وصاح به، وأصلُ (هَيَت): يَدُلُّ عَلَى الصَّيحةِ.

هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا: الهمُّ بالشيءِ: هو حديثُ المرءِ نفسَه بمواقعتِه ما لم يُواقِعْ، أو: هو المقاربةُ مِن الفعلِ مِن غيرِ دُخولٍ فيه، والهمُّ نوعانِ: همُّ خطراتٍ وكان هذا همَّ يوسفَ عليه السلامُ، وهمُّ اصرارٍ وكان هذا همَّ المرأةِ، وأصل (همَّ): يدلُّ على ذَوْبٍ وجَريانٍ ودبيبٍ وما أشبهَ ذلك.

السُّوءَ: السُّوءُ: الْقَبِيحُ، وهو خيانةُ مَن ائتَمَنه، وقيل: هو مُقدِّماتُ الفاحِشَةِ، وأصلُ (سوء): يدُلُّ على القُبحِ.

وَالْفَحْشَاءَ: أي: المَعصيةَ، وهي الزِّنا، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبْحٍ فِي شيءٍ وشناعةٍ.

وَقَدَّتْ: أي: شقَّتْ، وأصلُ (قدَّ): يدلُّ على قَطعِ الشَّيءِ طولًا.

دُبُرٍ: أي: خلفٍ، وأصلُ الدبر: آخرُ الشيءِ، وخلفُه، خلافُ قُبُلِه.

وَأَلْفَيَا: أي: وجدَا، وأصلُ (لفا): يدلُّ على انكشافِ شَيءٍ وكَشْفِه.

قُبُلٍ: القُبُل مِن كلِّ شيءٍ: خلافُ دُبُرِه، وذلك أنَّ مُقَدَّمَه يُقبِلُ على الشيءِ.

كَيْدِكُنَّ: أي: حيلتِكنَّ، وصنيعِكنَّ، والكَيْدُ: ضربٌ مِن الاحتيالِ، وقد يكونُ مذمومًا وممدوحًا، وإن كان يُستعمَلُ في المذمومِ أكثرَ، وأصلُ (كيد): يدُلُّ على مُعالجةٍ لشيءٍ بشِدَّةٍ.

تفسير الآيات:

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22).

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا.

أي: ولَمَّا بلغ يوسُفُ مُنتهى شِدَّتِهِ وقوَّتِه وشَبابِه، واكتمل خَلْقُه وعَقلُه؛ أعطَيناه النُّبوَّةَ والعِلمَ.[34]

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ.

أي: ومِثلَ ذلك الجزاءِ نَجْزي كلَّ مَن أحْسَن.

كما قال تعالى: إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ الأعراف: 56.

وقال سُبحانه: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ الزمر: 10.

---

(34) رجّح ابنُ عطية (٥/ ٦٣) أنّ الأَشُدَّ مبلغه ثلاث وثلاثين سنة بقوله: «وهذا أظهر الأقوال فيما نحسبه».
ولم يذكر مستندًا.
وزاد قولًا: أنّ الأشد من ثماني عشرة سنة إلى ستين سنة، وانتقده بقوله: «وهذا قول ضعيف».
وذكر ابنُ عطية (٥/ ٦٣) في قوله: ﴿حكما وعلما﴾ عدة احتمالات، ووجَّهها، فقال: «وقوله: ﴿حكما﴾ يحتمل أن يريد: الحكمة والنبوة، وهذا على الأشد الأعلى، ويحتمل: العلم والحكمة دون النبوة، وهذا أشبه إن كانت قصة المراودة بعد هذا.
و﴿علمًا﴾ يريد: تأويل الأحاديث وغير ذلك.
ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿حكما﴾ أي: سلطانًا في الدنيا، وحكمًا بين الناس بالحق.
وتدخل النبوة وتأويل الأحاديث وغير ذلك في قوله: ﴿وعلما﴾».

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23).

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ.

أي: ودعتْ امرأةُ العزيزِ يوسفَ– التي هو مقيمٌ في بيتِها، وتحتَ تدبيرِها– إلى نفسِها، وطلبتْ منه أن يواقعَها.

وَغَلَّقَتِ الأَبْوَاب.

أي: وغلَّقَت امرأةُ العزيز جميعَ أبوابِ البَيتِ عليها وعلى يوسُفَ.

وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ.

أي: وقالت ليوسُفَ: تعالَ وأقبِلْ إليَّ.

قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ.

أي: قال يوسُفُ لامرأةِ العزيزِ حين دعتْه إلى نفسِها: أعتَصِمُ باللهِ مِن فِعلِ الفاحشةِ التي تَدعينَني إليها؛ إنَّ زوجَكِ سيِّدي، أكرَمَني وأحسنَ إليَّ،[35] فلا أقابِلُ مَعروفَه بخيانتِه في أهلِه.

إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ.

أي: إنَّه لا يفوزُ ولا ينجَحُ الظَّالِمونَ الذين يفعلونَ ما ليس لهم فِعلُه، وهذا الذي تَدعينَني إليه ظُلمٌ وخِيانةٌ لسَيِّدي الذي أحسَنَ إليَّ.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24).

---

(35) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٦٦ – ٦٧) في عود الضمير في قوله: ﴿إنه ربي﴾ عدة احتمالات، فقال: «يحتمل أن يعود الضمير في ﴿إنه﴾ على الله – عز وجل –، ويحتمل أن يريد العزيز سيده، أي: فلا يصلح لي أن أخونه وقد أكرم مثواي وائتمنني، ويحتمل أن يكون الضمير للأمر والشأن، ثم يبتدئ: ﴿ربي أحسن مثواي﴾».

ورجّح ابنُ تيمية (٤/ ٢٣) أنّ المراد بالرب هنا: سيّده، مستندًا إلى الدلالة العقلية، فقال: «المراد بربّه في أصح القولين هنا: سيّده، وهو زوجها الذي اشتراه من مصر الذي قال لامرأته: ﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا﴾.

قال الله تعالى: ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

فلمّا وصّى به امرأته فقال لها: ﴿أكرمي مثواه﴾ قال يوسف: ﴿إنه ربي أحسن مثواي﴾.

ولهذا قال: ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾، والضمير في ﴿إنه﴾ معلوم بينهما، وهو سيدها».

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا.

أي: ولقد همَّت امرأةُ العزيزِ – همَّ عزمٍ – بمُواقعةِ الفاحِشةِ مع يوسُفَ، وهمَّ يوسُفُ بامرأةِ العزيزِ، وكان همُّه خطرةً عارضةً، وحديثَ نفسٍ، مِن غيرِ اختيارٍ ولا عزمٍ.(36)

---

(36) أفادت آثارُ السلف أنّ يوسف حصل منه هَمٌّ بمواقعة امرأة العزيز.

وهذا ما رجّحه ابنُ جرير (١٣/ ٨٢) مستندًا إلى آثار السلف بقوله: «فأمّا ما كان مِن هَمِّ يوسف بالمرأة وهمها به فإنّ أهل العلم قالوا في ذلك ما أنا ذاكره» وذكر أقوال السلف على هذا المعنى الذي ذكرناه.

وذكر ابنُ عطية (٥/ ٦٨) أنّه لم يَصِحَّ كونُ يوسف نبيًّا في ذلك الوقت، وبناءً عليه رَجَّح أنّ يوسف – عليه السلام – هَمَّ بمواقعة امرأة العزيز، فقال: «والذي أقول في هذه الآية: إنّ كون يوسف نبيًّا في وقت هذه النازلة لم يَصِحّ، ولا تظاهرت به رواية، وإذا كان ذلك فهو مؤمن قد أُوتِي حكمًا وعلمًا، ويجوز عليه الهَمُّ الذي هو إرادة الشيء دون مواقعته، وأن يستصحب الخاطرَ الرديءَ على ما في ذلك مِن الخطيئة».

ثم بيّن مستندًا إلى دلالة العقل أنّ يوسف لو كان نبيًّا حينئذ فلا يجوز عليه إلا الهمُّ الذي هو الخاطر الغير مستصحب للعزم ولا للفعل، فقال: «وإن فرضناه نبيًّا في ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندي إلا الهمُّ الذي هو الخاطر، ولا يصح عليه شيء مما ذكر مِن حل تكة ونحو ذلك؛ لأنّ العصمة مع النبوة، وما روي من أنّه قيل له: تكون في ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء. فإنّما معناه: العِدَة بالنبوة فيما بعد.

والهمُّ بالشيء مرتبتان: فالواحدة الأولى تجوز عليه مع النبوة، والثانية الكبرى لا تقع إلا مِن غير نبي؛ لأن استصحاب خاطر المعصية والتلذذ به معصية تكتب، وقول النبي – ﷺ –: «إنّ الله تجاوز لِأُمَّتِي ما حدَّثت به نفوسَها ما لم تنطِق به أو تعمل». معناه: من الخواطر، وأما استصحاب الخاطر فمحال أن يكون مباحًا».

ورجّح ابنُ تيمية (٤/ ٣٤ – ٣٥) أنّ همَّ يوسف إنّما كان همَّ خَطَرات لا هم إصرار، وهو غير مؤاخذ به، واستدل على ذلك بالسياق في مواضع: الأول: «دلالة الآية، حيث قال تعالى: ﴿لولا أن رءا برهان ربه﴾ فصرف الله به ما كان هَمَّ به وكتب له حسنة كاملة، ولم يكتب عليه خطيئة، إذ فعل خيرًا ولم يفعل سيئة.

الثاني: أنّ الله لم يذكر عن يوسف توبة في قصة امرأة العزيز، وفي هذا دليلٌ على أنّ يوسف لم يُذنِب أصلًا في تلك القصة.

الثالث: أنّه تعالى قال عن نبيه يوسف: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾، فأخبر أنّه صرف عنه السوء والفحشاء، وهذا يدل على أنه لم يصدر منه سوء ولا فحشاء».

وبنحوه قال ابنُ القيم (٢/ ٦٣).

وانتقد ابنُ تيمية مستندًا إلى عدم وروده في السنة ما ورد في آثار السلف أنّ يوسف – عليه السلام – همَّ بامرأة العزيز همَّ مواقعةٍ وعزم، فقال: «وأما ما يُنقَل مِن أنّه حلَّ سراويله، وجلس مجلس الرجل من المرأة، وأنّه رأى صورة يعقوب عاضًّا على

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِي اللَّه عنهما، ((عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما يَرْوي عَن رَبِّه عزَّ وجلَّ قال: قال إِنَّ اللَّهَ كَتَب الحسناتِ والسَّيِّئاتِ ثُمَّ بَيَّن ذلك فمَن هَمَّ بحسنةٍ فلم يَعْمَلْها كَتبها اللَّهُ له عندَه حسنةً كامِلَةً فإنْ هو هَمَّ بها فعمِلَها كَتبها اللَّه له عندَه عشرَ حسناتٍ إلى سَبعمِئةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، ومَن هَمَّ بسَيِّئَةٍ فلم يَعْمَلْها كَتبها اللَّهُ له عندَه حسنةً كامِلَةً، فإنْ هو هَمَّ بها فعَمِلَها كَتبها اللَّهُ له سَيِّئَةً واحدةً)).(37)

يده، وأمثال ذلك، فكلُّه مما لم يخبر الله به ولا رسوله، وما لم يكن كذلك فإنما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذبًا على الأنبياء وقدحًا فيهم، وكل مَن نقله من المسلمين فعنهم نقله، لم ينقل من ذلك أحد عن نبينا - ﷺ - حرفًا واحدًا».

وزاد ابنُ جرير وابنُ عطية في معنى همِّ يوسف عدة أقوال، أحدها: أنّ يوسف همَّ بضربها.

الثاني: أنّ المعنى: همَّ بها لولا أن رأى برهان ربه، أي: فلم يهم بها.

الثالث: أن همَّ يوسف كان بالخطرات التي لا يقدر على التحفظ منها بشر.

وقد انتقد ابنُ جرير (١٣/ ٨٦) مستندًا إلى اللغةِ، وإجماعِ أهل التأويل القولين الأولين، فقال: «ويفسد هذين القولين أنّ العرب لا تُقَدِّم جواب «لولا» قبلها، لا تقول: لقد قمت لولا زيد، وهي تريد: لولا زيد لقد قمت، هذا مع خلافهما جميع أهل العلم بتأويل القرآن الذين عنهم يؤخذ تأويله».

وبنحوه قال ابنُ كثير (٨/ ٣٠).

(37) أخرجه البخاري (6491)، واللفظ له، ومسلم (131).

لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ.

أي: لولا أنْ رأى يوسُفُ آيةً مِن اللهِ قَوِيَ بها إيمانُه، وامتنَعَ بسَبَبِها مِن عِصيانِه.(38)

كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء.

أي: أرَينا يوسُفَ كتلك الإراءةِ؛ كي نَقِيَه السُّوءَ والفَحشاءَ في جميعِ أمورِه.

---

(38) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (13/99، 100)، ((تفسير القرطبي)) (9/169، 170)، ((تفسير ابن كثير)) (4/381، 382)، ((تفسير الشوكاني)) (3/22).

قال ابنُ جَرير: (وأَوْلَى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أن يُقال: إنَّ الله جَلَّ ثناؤُه أخبَرَ عن هَمِّ يُوسُفَ وامرأةِ العَزيزِ كُلِّ واحِدٍ منهما بصاحِبِه، لولا أن رَأى يُوسُف بُرهانَ رَبِّه، وذلك آيةٌ مِن الله زَجَرَتْه عن رُكوبِ ما هَمَّ به يُوسُف مِن الفاحِشَة، وجائِزٌ أن تكونَ تلك الآيةُ صُورةَ يَعقوب، وجائِزٌ أن تكونَ صُورةَ المَلَكِ، وجائِزٌ أن يكونَ الوَعيد في الآيات التي ذكَرَها اللهُ في القُرآن على الزِّنَى، ولا حُجَّةَ للعُذْرِ قاطِعَة بأيِّ ذلك كان مِن أيٍّ.

والصَّوابُ أن يُقالَ في ذلك ما قالَه الله تَبارَك وتَعالى، والإيمان به، وتَرْك ما عَدَا ذلك إلى عالِمِه).

((تفسير ابن جرير)) (13/99).

وقال ابنُ تَيمية: (هو بُرهانُ الإيمانِ الذي حَصَل في قَلْبِه فصرَفَ اللهُ به ما كان هَمَّ به).

((مجموع الفتاوى)) (10/101).

ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 396).

وجوابُ لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ محذوفٌ، تقديرُه: لكانَ ما كان، أو: لارتكبَ المعصيةَ.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (3/235)، ((تفسير ابن جزي)) (1/384)، ((تفسير النسفي)) (2/103).

وتقدَّم قريبًا ذكرُ الوجهِ الآخرِ، وهو أنَّ ما قبلَ (لَوْلَا) هو دَليلُ الجَوابِ المَحْذوف، ومعنَى الآيَة على ذلك: وهَمَّ بها لولا أن رَأى بُرهانَ رَبِّهِ، أي: لولا أن رَآهُ هَمَّ بها.

إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

أي: إنَّ يوسُفَ مِن عبادِنا المُطَهَّرينَ المختارينَ المصطفَيْنَ، الذين أخلَصوا لله التوحيدَ والعبادةَ.

في قولِه: الْمُخْلَصِينَ قراءتانِ:

1- قِراءةُ الْمُخْلَصِينَ بفَتحِ اللامِ: اسمُ مفعولٍ، بمعنى: أنَّ اللهَ أخلَصَهم من الشِّركِ والسُّوءِ والفَحشاءِ، فصاروا مُخلَصينَ، أي: اختارَهم اللهُ.(39)

2- قِراءةُ الْمُخْلِصِينَ بكسرِ اللامِ: اسمُ فاعلٍ، بمعنى: أنَّهم أخلَصوا لله دينَهم وأعمالَهم مِن الشِّركِ والرِّياءِ.(40)

---

(39) قرأ بها نافعٌ وعاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وأبو جعفرٍ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (295/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (100/13)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 194)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 359).

(40) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (295/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (101/13)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 194)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 358).

قال ابنُ جريرٍ: (والصَّوابُ مِنَ القولِ في ذلك أنْ يُقالَ: إنَّهما قراءتانِ معروفتانِ قد قرأَ بهما جماعةٌ كثيرةٌ مِنَ القُرَّاءِ، وهما مُتَّفِقتا المعنَى؛ وذلك أنَّ مَنْ أخلَصه اللَّهُ لنفسِه فاختارَه، فهو مُخْلِصٌ لِلَّهِ التَّوحيدَ والعبادَةَ، ومَنْ أخلَص توحيدَ اللَّهِ وعبادتَه فلم يُشْرِكْ باللَّهِ شيئًا، فهو مَن أخلَصه اللَّهُ).

((تفسير ابن جرير)) (101/13).

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ

بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (25).

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ.

أي: واستبقَ يوسُفُ وامرأةُ العزيزِ إلى بابِ البيتِ؛ يوسُفُ يفِرُّ منها، وهي تطلُبُه ليرجِعَ إلى البيتِ؛ لتقضيَ حاجَتَها منه، الَّتِي راودَتْه عليها.

وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ.

أي: وأدرَكَت امرأةُ العزيزِ يوسُفَ، فأمسَكَت بقميصِه، وجَذبَته لتَمنعَه من الخروجِ، فشَقَّت قميصَه مِن الخَلفِ؛ مِن شِدَّةِ الجَذبِ.

وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ.

أي: وصادفَ يوسُفُ وامرأةُ العزيزِ زوجَها عند البابِ.

وقال السعدي عن هاتينِ القراءتينِ: (وهما متلازمتانِ، فأخلَصهم لإخلاصِهم، فمَن أخلَص للهِ أخلَصه، وخلَّصه مِن الشرورِ، وعصَمه مِن السوءِ والفحشاءِ).

((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) (ص: 28).

قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

أي: قالت امرأةُ العزيزِ لِزَوجِها لَمَّا وجَدَته عند البابِ، مُتَّهِمةً يوسُفَ بمُراودتِها: ما جزاءُ مَن أراد فِعلَ الفاحِشةِ بزَوجتِك إلَّا أن يُحبَسَ في السِّجنِ، أو يُضرَبَ ضَربًا مُوجِعًا.

قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ (26).

قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي.

أي: قال يوسُف للعزيزِ مُدافِعًا عن نفسِه: لم أُراوِدْ زوجَتَك عن نفسِها، بل هي مَن طلَبَت منِّي فِعلَ الفاحشةِ، فأبيتُ.

وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا.

أي: وحكَمَ بينَ امرأةِ العزيزِ وبين يوسُفَ حاكِمٌ مِن أهلِها لَمَّا اختلفَ قولاهما.[41]

(41) اختُلِف في قوله: ﴿وشهد شاهد﴾ على أقوال: الأول: كان صبيًّا في المهد.
الثاني: كان رجلًا حكيمًا ذا لحية.
الثالث: أنّ الشاهد هو قميص يوسف.
الرابع: كان خَلْقًا مِن خلق الله، ولم يكن إنسيًّا ولا جنيًّا.
الخامس: أنّ المعنى: وحكم حاكم.
وقد رجّح ابنُ جرير (١٣/ ١١١) مستندًا إلى السنة القول الأول، فقال: «والصواب من القول في ذلك قولُ مَن قال: كان صبيًّا في المهد؛ للخبر الذي ذكرناه عن رسول الله – ﷺ – أنّه ذكر مَن تكلم في المهد، فذكر أنّ أحدهم صاحب يوسف».

إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ.

أي: قال الشَّاهِدُ حاكِمًا بين يوسُفَ وامرأةِ العزيزِ: إن كان قميصُ يوسُفَ شُقَّ مِن الأمامِ فصدَقَت في دعواها أنَّ يوسُفَ راودها، وهو مِن الكاذبينَ في دَعواه أنَّها التي راوَدَته، بدليلِ أنَّها دافعتْه عن نفسِها حتَّى شقَّت قميصَه مِن الأمامِ.

وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ (27).

أي: وإن كان قميصُ يوسُفَ شُقَّ مِن الخَلفِ فكَذَبت في دَعواها أنَّ يوسُفَ راودَها، وهو مِن الصَّادقينَ في دعواه أنَّها التي راوَدَته، بدليلِ أنَّه فرَّ منها حينَ راودتْه، فاتَّبعتْه، وجذَبتْ قميصَه حتَّى شقَّته مِن ورائِه.

فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28).

ثم انتقد مســـــتندًا إلى اللغة القول الثالث، فقال: «فأمّا ما قاله مجاهد مِن أنّه القميص المقدود، فمِمّا لا معنى له؛ لأنّ الله –تعالى ذِكْرُه– أخبر عن الشـاهد الذي شـهد بذلك أنّه من أهل المرأة، فقال: ﴿وشـهد شـاهد من أهلها﴾، ولا يقال للقميص: هو من أهل الرجل ولا المرأة».

وانتقد ابنُ عطية (٥/ ٧٢ – ٧٣) مسـتندًا إلى السـنة، والدلالة العقلية القول الأول، فقال: «ومِمّا يضـعف هذا أنّ في صـحيح البخاري ومسـلم: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسـى ابن مريم، وصـاحب جريج، وابن السـوداء الذي تمنت له أن يكون كالفاجر الجبار».

فقال: لم يتكلم، وأسقط صاحب يوسف منها.

ومنها: أنّ الصبي لو تكلم لكان الدليل نفس كلامه دون أن يحتاج إلى الاستدلال بالقميص».

وانتقد مستندًا إلى اللغة القول الثالث بقوله: «وهذا ضعيف؛ لأنّه لا يُوصَف بأنه من الأهل».

فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ.

أي: فلمَّا رأى زوجُ المرأةِ قميصَ يوسُفَ شُقَّ مِن خلفٍ، وتبيَّن له صِدقُه؛ قال لزوجتِه: إنَّ هذا الكَذِبَ الذي ادَّعَيتِه على يوسُفَ مِن جملةِ مَكرِكُنَّ وحِيَلِكُنَّ- أيَّتُها النِّساءُ.

إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ.

أي: قال العزيزُ لزوجتِه:[42] إنَّ مَكرَكنَّ واحتيالَكنَّ- أيَّتُها النِّساءُ- عظيمٌ، شديدُ التَّأثيرِ في النُّفوسِ.

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (29).

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا.

أي: وقال ليوسُف عليه السَّلامُ: يا يوسُفُ، أعرِضْ عن ذِكرِ ما جرَى منها، ولا تُخبِرْ به أحدًا.

وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ.

---

(42) وممَّن اختار أنَّ قائلَ ذلك وما بعدَه إلى قولِه: الْخَاطِئِينَ هو زوجُ المرأةِ العزيزُ: أبو حيان، وابنُ كثيرٍ، والشوكاني، ومحمد رشيد رضا، والسعدي، وابنُ عاشور، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (262/6)، ((تفسير ابن كثير)) (384/4)، ((تفسير الشوكاني)) (23/3)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (238/12)، ((تفسير السعدي)) (ص: 396)، ((تفسير ابن عاشور)) (258/12)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (206/2).

وقيل: القائلُ هو الشاهدُ.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (433/2).

أي: قال العزيزُ لامرأتِه: واطلُبي المَغفِرةَ(43) لذَنبِك الذي وقعَ منكِ، مِن مُراودةِ يوسُفَ عن نفسِه، وخيانةِ زَوجِك، ثمَّ قَذْفِ يوسُفَ بما هو بريءٌ منه؛ إنَّكِ كُنتِ من جملةِ المتعمِّدينَ الوقوعَ في الخَطايا.

---

(43) طلَب منها زوجُها الاستغفارَ مِن الله، فقد كان أُولئك الأَقْوامُ يُقرُّون بالربِّ سبحانَه وتعالى وبحقِّه، وإن أشْرَكوا معه غيرَه، بدَليلِ أنَّ يُوسُفَ عليه السَّلامُ قال: أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ [يوسف: 39]، يُنظر: ((تفسير الرازي)) (447/18)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: 321)).

وقيل: إنَّ معنَى وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ أي: واعْتَذري إلى زوجِك، واسْتَعْفيه ألَّا يعاقِبَك، وهذا مرويٌّ نحوُه عن ابنِ زيدٍ.

وهذا على أنَّ قائلَ: يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ... هو الشاهدُ، وممن اختار ذلك: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، والقرطبيُّ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (331/2)، ((تفسير ابن جرير)) (113/13)، ((تفسير ابن عطية)) (237/3)، ((تفسير القرطبي)) (175/9).

سُورةُ يُوسُفَ

الآيات (30-35)

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ (30) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ
مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا
بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (31) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ
فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ (32) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33)
فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34) ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا
رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35)

غريب الكلمات:

شَغَفَهَا: أي: أصاب حبُّه شَغافَ قلبها، والشَّغافُ: غِلافُ القَلبِ.

وَأَعْتَدَتْ: أي: هَيَّأَتْ وأعَدَّتْ، وأصلُه مِن الإعدادِ الذي هو تَهيئةُ الشَّيءِ.

مُتَّكَأً: أي: مجلسًا يُتكأُ فيه، أو وَسائِدَ يُتكأُ عليها، وأصلُ (وكأ): يدلُّ على شدِّ شيءٍ.

أَكْبَرْنَهُ: أي: أجلَلْنَه وأعظَمْنَه، وأصلُ (كبر): يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ.

حَاشَ لله: أي: معاذَ اللهِ، وتنزيهًا له؛ من المحاشاةِ: وهي التَّخليةُ والتَّبعيدُ.

فَاسْتَعْصَمَ: أي: امتنَعَ، وتحرَّى ما يَعصِمُه، وأصلُ (عصم): يدلُّ على إمساكٍ، ومَنعٍ، ومُلازمةٍ.

أَصْبُ: أي: أمِلْ، يُقال: صَبَا فلانٌ: إذا نزَع واشتاق، وفعَلَ فعلَ الصِّبيانِ، وأصلُ (صبا): يدلُّ على صِغرِ السِّنِّ.

تفسير الآيات:

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (30).

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ.

أي: وقال نساءٌ في مدينة مصرَ: امرأةُ العزيزِ ذاتُ القَدرِ الكبيرِ تُراوِدُ غُلامَها عن نَفسِه، وتدعوه إلى مواقَعتِها!

قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا.

أي: قد وصل حُبُّ فتاها إلى شَغافِ قَلبِها، وبلغ حبُّها له مبلغًا عظيمًا!

إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ.

أي: إنَّا لنرى امرأةَ العزيزِ في خطأٍ واضحٍ في مُراودتِها فتاها، وحُبِّها له.

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (31).

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾.

أي: فلمَّا سَمِعَت امرأةُ العزيزِ مقالةَ النِّساءِ اللاتي تكلَّمْنَ عن مراوَدتِها يوسُفَ، وشِدَّةِ حُبِّها له، أرسلَتْ إليهنَّ تدعوهنَّ إلى بَيتِها؛ لتُضيفَهُنَّ.(44)

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾.

أي: وهيَّأت لهنَّ مجلِسًا يتَّكِئنَ عليه، مِن الوسائدِ والفُرُشِ.(45)

---

(44) ذكَر ابنُ عطية (٥/ ٧٧) أنّ قولهن سُمِّي مكرًا مِن حيث أظهرن إنكار منكرٍ، وقصدن إثارة غيظها عليهن.
ثم أورد قولًا آخر، فقال: «وقيل: مكْرُهُنَّ أنهن أفشين ذلك عنها، وقد كانت أطْلَعَتْهُنَّ على ذلك، واسْتَكْتَمَتْهُنَّ إيّاه».
وعلَّق عليه بقوله: «وهذا لا يكون مكرًا إلا بأن يُظْهِرن لها خلاف ذلك، ويقصدن بالإفشاء أذاها».
(45) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (178/9)، ((تفسير ابن كثير)) (285/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 397)، ((تفسير ابن عاشور)) (262/12).
قال الرسعني: (أعَدَّتْ وهَيَّأتْ لهنَّ مجلسًا يتكِئْنَ عليه من النَّمَارق والفُرشِ، كعادةِ المترفين.
هذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ والأكثرينَ).
((تفسير الرسعني)) (324/3).
وقال ابنُ كثيرٍ: (قال ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، ومجاهدٌ، والحسنُ، والسُّدِّيُّ، وغيرُهم: هو المجلسُ المعدُّ، فيه مفارشُ ومخادُّ وطعامٌ، فيه ما يُقْطَعُ بالسَّكاكِينِ من أُتْرُجٍّ ونحوِه).
((تفسير ابن كثير)) (285/4).
وقال ابنُ عاشورٍ: (المتَّكأُ: محَلُّ الاتِّكاءِ.
والاتِّكاءُ: جِلسةٌ قريبةٌ من الاضطجاعِ على الجنبِ مع انتصابٍ قليلٍ في النِّصفِ الأعلى، وإنَّما يكونُ الاتِّكاءُ إذا أُريدَ إطالةُ المكثِ والاستراحة).
((تفسير ابن عاشور)) (262/12).

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:

في قوله: مُتَّكَأً قراءتان:

1- مُتَّكًا: مشددُ التاءِ دونَ همزٍ، وفيها وجهان: أحدهما: أن يكونَ أصلُه مُتَّكَأً كالقراءةِ الأُخرَى، وإنما خُفِّفَ همزُه. والثاني: أن يكونَ مُفْتَعَلًا، مِن: أوكَيْتُ القِرْبَةَ إذا شَدَدْتَ فاها بالوِكاءِ، فالمعنى: أَعْتَدَتْ شيئًا يَشْتَدِدْنَ عليه: إمَّا بالاتِّكاءِ، وإمَّا بالقطعِ بالسِّكِّينِ.(46)

2- مُتَّكَأً: والمتَّكأُ الشيءُ الذي يُتَّكَأُ عليه من وسادةٍ ونحوها. وقيل: المتكأ: مكان الاتِّكاء. وقيل غيرُ ذلك.(47)

وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا.

أي: وأعطَتْ كلَّ واحدةٍ مِن النِّساءِ اللَّاتي حَضَرنَ مَجلِسَها سِكِّينًا؛ لتُقَطِّعَ به ما يحتاجُ إلى تقطيعٍ مِن الطَّعامِ.

---

(46) قرأ بها أبو جعفر.

يُنظر: ((المبسوط في القراءات العشر)) للنيسابوري (ص: 246)، ((النشر)) لابن الجزري (399/1).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير أبي حيان)) (268/6)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (477/6).

(47) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((المبسوط في القراءات العشر)) للنيسابوري (ص: 246)، ((النشر)) لابن الجزري (399/1).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير أبي حيان)) (267/6)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (477/6).

وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ.

أي: وقالت ليوسُفَ: اخرُجْ على هؤلاءِ النِّسوةِ.

فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ.

أي: فخرج يوسفُ عليهنَّ، فلمَّا رأى النِّسوةُ يوسُفَ أعظَمْنَ جمالَه، وأجلَلْنَ قَدْرَه.

وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ.

أي: وجَرَحن أيديَهنَّ بالسَّكاكينِ، وهُنَّ يَحسَبنَ أنَّهنَّ يُقَطِّعنَ الطَّعامَ؛ لدَهشتِهنَّ بما رأينَ مِن جمالِ يوسُفَ.[48]

(48) اختُلِف في المراد بقوله: ﴿وقطعن أيديهن﴾ على قولين: الأول: أنّ المعنى: أنهن جرحن، وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترج.
الثاني: أنهن قطعن أيديهن حتى أبنّها وألقينها.
ورجَّح ابنُ جرير (١٣/ ١٣٥) جوازهما، مع عدم القطع بأحدهما؛ لعدم الدليل على تعيين أحدهما، فقال: «والصواب من القول في ذلك أن يُقال: إنّ الله أخبر عنهن أنهن قطعن أيديهن وهن لا يشعرن لإعظام يوسف، وجائز أن يكون ذلك قطعًا بإبانة، وجائز أن يكون كان قطعَ حزٍّ وخَدْش، ولا قول في ذلك أصوب من التسليم لظاهر التنزيل».
وانتقد ابنُ عطية (٥/ ٧٩) القول الثاني الذي قاله مجاهد، وقتادة مستندًا للدلالة العقلية، فقال: «وذلك ضعيف من معناه، وذلك أنّ قطع العظم لا يكون إلا بشدة، ومحال أن يسهو أحدٌ عنها، والقطع على المفصل لا يتهيأ إلا بتلطف لا بد أن يُقصد».
ورجَّح القولَ الأول، فقال: «والذي يُشْبِه أنّهُنَّ حملن على أيديهن الحملَ الذي كُنَّ يحملنه قبل المتْك، فكان ذلك حزًّا، وهذا قول الجماعة».

وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ.

أي: وقالت النِّسوةُ: معاذَ اللهِ، وتنزيهًا له.

مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ.

أي: ما هذا مِن البشَرِ، ما هو إلَّا ملَكٌ مِن الملائكةِ، كريمٌ على اللهِ.

عن أنسِ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه، في حديثِ الإسراءِ والمِعراجِ الطَّويلِ: قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ:

((ثمَّ عُرِجَ بي إلى السَّماءِ الثَّالثة، فاستفتَحَ جبريلُ، فقيل: من أنت؟ قال: جبريلُ، قيل: ومن معك؟ قال: محمَّدٌ – ﷺ –، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِح لنا، فإذا أنا بيوسُفَ – ﷺ – ، إذا هو قد أُعطِيَ شَطرَ الحُسنِ، فرَحَّبَ ودعا لي بخيرٍ)).[49]

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (32).

---

(49) رواه مسلم (162).

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ.

أي: قالت امرأةُ العزيزِ للنِّسوةِ لَمَّا رأت افتِتانَهُنَّ بيوسُفَ: فهذا الذي أصابَكُنَّ حين نظرتنَّ إليه ما أصابكُنَّ؛ مِن الذهولِ وغيابِ العقل، حتَّى قطَّعتنَّ أيديَكُنَّ- هو الفتى الذي لُمتُنَّني في الافتتانِ به، وعيَّرتُموني في مُراودتي له، وحُبِّي إيَّاه![50]

وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ.

أي: ولقد راوَدْتُ يوسُفَ عن نفسِه فدَعوتُه إلى الفاحشةِ، فامتنَعَ.

وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ.

أي: وَلَئِن لم يفعَلْ يوسُفُ ما آمُرُه به ليُلقَيَنَّ في السِّجنِ، ولَيكونَنْ من الأذلَّاءِ المُهانِينَ.

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (33).

---

(50) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٨٢) أنّ الضمير في ﴿فيه﴾ يحتمل احتمالين: الأول: أن يكون عائدًا على يوسف.
الثاني: أن تكون الإشارة إلى حُبِّ يوسف، والضمير عائد على الحُبِّ.
وعلّق عليه بقوله: «فيكون ذلك إشارةً إلى غائب على بابه».

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ.

أي: قال يوسُفُ مُتضَرِّعًا إلى الله: يا ربِّ، دخُولي السِّجنَ، وتحمُّلُ مَشاقِّه أفضَلُ لديَّ وأهوَنُ ممَّا يَدعونَني إليه مِن مَعصيتِك، ويُراوِدنني عليه مِن الفاحِشةِ.

وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ.

أي: وإنْ لم تدفَعْ عنِّي كيدَ أولئك النِّسوةِ أمِلْ إليهنَّ لضَعفي، وأُتابِعْهنَّ على ما يُرِدْنَ منِّي، وأكُنْ من الجاهلينَ بحقِّك، المُخالفينَ لأمرِك ونَهيك، فاعصِمْني، ولا تَكِلْني إلى نَفسي.

فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34).

فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ.

أي: فاستجاب اللهُ ليوسُفَ دُعاءَه، فدفع عنه ما أرادَت منه امرأةُ العزيزِ وصواحِباتُها مِن معصيةِ الله.

إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

أي: إنَّ اللهَ هو السَّميعُ لدُعاءِ يوسُفَ حين دعاه، ويسمَعُ كُلَّ داعٍ مِن خَلقِه، العليمُ بمَكرِ النِّسوةِ، وبنِيَّةِ يوسُفَ وحاجتِه وبما يُصلِحُه، ويعلَمُ جميعَ أحوالِ عبادِه.

ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35).

أي: ثمَّ ظهَر للعزيزِ وأصحابِه من بعدِ ما رأَوُا الأدلَّةَ المُبَرِّئةَ ليوسُفَ أنَّ المصلَحةَ في إيداعِه السِّجنَ مدَّةً مِن الزَّمَن.[51]

(51) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (108/12)، ((تفسير ابن كثير)) (387/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 397).

قال ابن كثير: (فكأنَّهم- والله أعلم- إنَّما سجنوه لَمَّا شاع الحديثُ؛ إيهامًا أنَّ هذا راودَها عن نفسِها، وأنَّهم سَجَنوه على ذلك؛ ولهذا لَمَّا طلبه المِلكُ الكبيرُ في آخر المدَّة، امتنع من الخروجِ حتى تتبيَّنَ براءتُه ممَّا نسب إليه من الخيانة، فلمَّا تقرَّرَ ذلك خرج وهو نقيُّ العِرضِ- صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه).

((تفسير ابن كثير)) (387/4).

ساق ابنُ عطية (٥/ ٨٥) ما أورده المفسرون في الآيات، ثم علَّق بقوله: «ومقصد الكلام إنما هو: أنَّهم رأوا سجنَه بعد بُدُوِّ الآيات المُبَرِّئَةِ له مِن التُّهمة، فهكذا يبين ظلمهم له.

وخمش الوجهِ، وحزُّ النساء أيديهن؛ ليس فيهما تبرية ليوسف، ولا تتصور تبرية إلا في خبر القميص، فإن كان المتكلم طفلًا -على ما رُوي- فهي آية عظيمة، وإن كان رجلًا فهي آية فيها استدلال ما.

والعادة أنه لا يُعَبَّر بآيةٍ إلا فيما ظهوره في غاية الوضوح، وقد تقع الآيات أيضًا على المبينات كانت في أي حد اتَّفق من الوضوح».

ثم أورد احتمالًا آخر، فقال: «ويحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾ أي: مِن بعد ما ظهر لهم مِن وجوه الأمر وقرائنه أنّ يوسف بريء، فلم يرد تعيين آية، بل قرائن جميع القصة».

ذكر ابنُ عطية (٥/ ٨٥ - ٨٦) أنّ «الحين» في كلام العرب وفي هذه الآية: الوقت مِن الزمن غير محدود، يقع للقليل والكثير، وذلك بيّن موارده في القرآن.

ثُمَّ استدرك على تحديد «الحين» بقوله: «وهذا بحسب ما كشف الغيب في سجن يوسف».

سُورةُ يُوسُفَ

الآيات (36-42)

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ
فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36) قَالَ لَا
يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ
مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى
النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (38) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ
اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ (40) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ

فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (41) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42)

غريب الكلمات:

مِلَّةَ: أي: دينَ، وطريقةَ، مشتقَّة من أَمْلَلْتُ (أي: أَمْلَيْتُ)؛ لأنَّها تُبنَى على مسموعٍ ومتلوٍّ؛ فإذا أُريدَ الدِّينُ باعتبارِ الدُّعاءِ إليه؛ قيل: (مِلَّة)، وإذا أُريدَ باعتبارِ الطَّاعةِ والانقيادِ له؛ قيل: (دين).

الْقَيِّمُ: أي: المستقيمُ الذي لا عِوجَ فيه، أو: القائمُ الدائمُ الذي لا يزولُ، وأصلُ (قوم): يدلُّ على مراعاةِ الشيءِ وحِفظِه.

بِضْعَ: البِضْعُ هو ما بينَ الثَّلاثِ إلى العَشرةِ، وقيل غير ذلك، واشتقاقُه مِن (بَضَعْت) بمعنَى (قَطَعت)، ومعناه القطعةُ مِن العَدَدِ، وأصلُ (بضع): يدلُّ على طائفةٍ مِن الشَّيءِ عُضْوًا أو غيرَه.

تفسير الآيات:

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَانِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَانِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36).

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ

أي: فسَجَنوا يوسُفَ، ودخل معه السِّجنَ شابَّانِ.

قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَانِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا.

أي: قال أحدُ الشَّابَّينِ ليوسُفَ: إنِّي رأيتُ في المنامِ أنِّي أعصِرُ عِنبًا.[52]

وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَانِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ.

أي: وقال الشَّابُّ الآخَرُ ليوسُفَ: إنِّي رأيتُ في المنامِ أنِّي أحمِلُ على رأسي خُبزًا تنهَشُ الطَّيرُ منه.

---

(52) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (13/154)، ((تفسير البغوي)) (2/491)، ((تفسير ابن كثير)) (4/388).

قال الواحدي: (معنى أَعْصِرُ خَمْرًا أعصِرُ عنبَ خَمرٍ، أي: العنبَ الذي يكونُ عصيرُه خمرًا، فحُذِفَ المضافُ، وقال الزجَّاج وابن الأنباري: العربُ تسمِّي الشيءَ باسمِ ما يؤولُ إليه الشيءُ، إذا انكشف المعنى ولم يلتبِسْ؛ يقولون: فلانٌ يطبُخُ الآجُرَّ ويطبُخُ الدِّبسَ، وإنما يطبخُ اللَّبِنَ والعصيرَ.

وقومٌ يقولون: إنَّ بعضَ العرَبِ يسمُّونَ العنبَ خَمرًا).

((الوسيط)) (2/613).

ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (2/438، 439).

اختُلِف هل سأل الفَتيان يوسف عن رؤيا حقيقة؟ أم أرادا تجربته؟ ذكر ابنُ كثير (٨/ ٤١) أنّ المشهور عند الأكثرين هو القول الأول الذي قاله ابن إسحاق، ومجاهد.

نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ.

أي: أخبِرْنا بتفسيرِ ما رَأينا في منامِنا.

إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ.

أي: إنَّا نراك من المُحسِنينَ،[53] فأحسِنْ إلينا بتعبيرِ رُؤيانا.

قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37).

(53) اختُلف في معنى مِنَ الْمُحْسِنِينَ فقيل: أي: إلى أهلِ السِّجنِ، وقيل: مِن الذين يحسنونَ عبارةَ الرُّؤيا، أو مِن المحسنينَ في العلمِ، وقيل: مِن المحسنينَ إلينا إن فسَّرتَ لنا ما رأيناه.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (2/439)، ((تفسير ابن عطية)) (3/244)، ((تفسير القرطبي)) (9/190).

قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا.

أي: قال يوسُفُ للشَّابَّيْنِ: لا تريانِ في مَنامِكما طعامًا يأتيكما(54) إلَّا أخبرتُكما بتعبيرِه في اليَقظةِ قبلَ أن يقعَ.(55)

---

(54) اختُلِف هل كان الطعام الذي يأتيهما في اليقظة أم المنام؟ وأثر ابن جريج مصرِّح بأنه في اليقظة، وهو ما علَّق عليه ابنُ جرير (١٣/ ١٦٢) بقوله: «وعلى هذا التأويل الذي تأوله ابن جريج فقوله: ﴿لا يأتيكما طعام ترزقانه﴾ في اليقظة، لا في النوم.

وإنّما أعلمهما على هذا القول أنّ عنده علم ما يؤُول إليه أمرُ الطعام الذي يأتيهما مِن عند الملك ومِن عند غيره؛ لأنّه قد علم النوع الذي إذا أتاهما كان علامةً لقتل مَن أتاه ذلك منهما، والنوع الذي إذا أتاه كان علامةً لغير ذلك، فأخبرهما أنّ عنده علم ذلك».

وعلَّق عليه ابنُ عطية (٥/ ٨٨ بتصرف) بقوله: «فعلى هذا إنّما أعْلَمَهم بأنّه يعلم مُغَيَّبات لا تعلق لها برؤيا.

وقصد بذلك أحد وجهين: الأول: تَنسِيَتَهما أمرَ تعبيرِ ما سألا عنه؛ إذ في ذلك النذارة بقتل أحدهما.

الثاني: الطماعية في إيمانهما.

ليأخذ المقتول بحظِّه من الإيمان، وتسلم له آخرته.

ثم قال:» وهذا على ما رُوِي مِن أنّه نُبِّئ في السجن، فإخباره كإخبار عيسى – عليه السلام –".

وانتقد ما جاء مِن أنّ إرسال الملك للطعام يؤذن بقتل المرسَل إليه مستندًا لدلالة اللفظ، وعدم الدليل النقليّ، فقال: «وهذا كله لا يقتضيه اللفظ، ولا ينهض به إسناد».

وانتقده ابنُ كثير (٤/ ٣٩٠ دار طيبة) قولَ ابن جريج مستندًا للسياق، فقال: «وفي هذا الذي قاله نظر؛ لأنّه قد وعدهما أولًا بتعبيرها، ولكن جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وُصْلَةً وسببًا إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى في سجيتهما مِن قبول الخير، والإقبال عليه، والإنصات إليه، ولهذا لَمّا فرغ مِن دعوتهما شرع في تعبير رؤياهما، مِن غير تكرار سؤال».

(55) وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، وابنُ تيمية، وابنُ كثيرٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (159/13، 160)، ((الوسيط)) للواحدي (613/2)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (365/17)، ((تفسير ابن كثير)) (388/4).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: مجاهدٌ، والسديُّ، وابنُ إسحاقَ.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (2144/7)، ((تفسير ابن جرير)) (159/13).

قال ابن تيميةَ: (هذا قولُ أكثرِ المفَسّرينَ، وهو الصَّواب).

ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي.

أي: هذا العِلمُ بتعبيرِ الرُّؤى ممَّا علَّمَني ربِّي.

إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ.

أي: إنِّي تبرَّأتُ مِن مِلَّةِ الكُفَّارِ الذين لا يؤمِنونَ باللهِ وبوَحدانيَّتِه، ولا يُقِرُّونَ بالبعثِ ولا بالثَّوابِ والعِقابِ يومَ الحِسابِ.

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ (38).

((مجموع الفتاوى)) (365/17).

ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (223/5).

وقيل: المعنى: لا يأتيكما طعامٌ تُرزَقانِه في اليَقَظةِ إلَّا أخبرتُكما به قبل أن يصِلَ إليكما؛ لأنَّه كان يخبِرُ بما غابَ، فيقولُ: اليومَ يأتيكما طعامٌ مِن صفتِه كيت وكيت، فيجدانِه كما أخبَرَهما.

وممن قال بهذا القول: الزجَّاجُ، والزمخشري، والقرطبي، والألوسي، والقاسمي.

يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (110/3)، ((تفسير الزمخشري)) (470/2)، ((تفسير القرطبي)) (191/9)، ((تفسير الشوكاني)) (32/3)، ((تفسير الألوسي)) (431/6)، ((تفسير القاسمي)) (175/6).

وممن قال به مِن السلفِ: الحسنُ.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (439/2).

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ.

أي: واتَّبعتُ دينَ آبائي الأنبياءِ؛ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ– عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ– الذين دعَوا إلى توحيدِ اللهِ.

عن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: ((قيل يا رسولَ اللهِ: من أكرَمُ النَّاسِ؟ قال: أتقاهم، فقالوا: ليس عن هذا نسألُك، قال: فيوسُفُ نبيُّ اللهِ، ابنُ نبيِّ اللهِ، ابنِ نبيِّ اللهِ، ابنِ خَليلِ اللهِ)).(56)

مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ.

أي: ما ينبغي لنا أن نجعلَ لله شريكًا في عبادتِه وطاعتِه.

ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ.

أي: ذلك التَّوحيدُ– الذي أكرَمَنا اللهُ تعالى به– ممَّا تفضَّلَ به علينا، وعلى النَّاسِ الذين جعَلَنا دُعاةً لهم إلى توحيدِه وطاعتِه.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَشكُرونَ نِعَمَ اللهِ عليهم، فيُؤْمِنونَ به ويُوحِّدونَه، ويعملونَ بما شرَعه لهم، بل يُشركونَ.

---

(56) رواه البخاري (3353) ومسلم (2378).

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39).

أي: قال يوسُفُ للشَّابَّيْنِ: يا ساكِنَيِ السِّجنِ، أآلهةٌ شتَّى لا تنفعُ ولا تضرُّ خيرٌ، أم المعبودُ الواحِدُ الذي لا ثانيَ له في ذاته وصفاتِه وكمالِه، الذي قهرَ كلَّ شَيءٍ مِن خَلْقِه، المستحِقُّ للعبادةِ وَحدَه؟!

مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (40).

مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم.

أي: ما تعبُدونَ مِن دونِ اللهِ إلَّا أسماءً سمَّيتُموها آلهةً أنتم وآباؤُكم، واعتقَدتُم ألوهيَّتَها، وليست في الحقيقةِ بآلهةٍ تستَحِقُّ العبادةَ.

مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ.

أي: لم يُنزِلِ اللهُ أيَّ حُجَّةٍ تدُلُّ على ثبوتِ أسماءِ تلك الآلهةِ الباطلةِ، ولا على استحقاقِها للعبادةِ.

كما قال تعالى: إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى النجم: 23.

إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ.

أي: ما الحُكمُ إلَّا للهِ المُستحِقّ للعبادةِ دونَ ما سواه؛ فهو وحدَه الحاكِمُ بين عبادِه، المشَرّعُ لهم.(57)

كما قال تعالى: إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ الأنعام: 57.

وقال سُبحانه: وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا الكهف: 26.

أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ.

أي: أمَرَكم الله– أيُّها النَّاسُ جميعًا– ألَّا تعبُدُوا إلَّا اللهَ وحدَه، ولا تُشرِكوا به شيئًا.

ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ.

أي: ذلك التَّوحيدُ وإخلاصُ العبادةِ لله وحدَه، هو الدِّينُ المُستقيمُ الذي أمرَ اللهُ به عبادَه.

كما قال تعالى: وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ البينة: 5.

---

(57) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٩١) أنّ قوله: ﴿إن الحكم إلا لله﴾ معناه: أي: ليس لأصنامكم التي سميتموها آلهة مِن الحكم والأقدار والأرزاق شيء، أي: فما بالها إذن؟ ثم أورد احتمالًا آخر، فقال: «ويحتمل أن يريد الردُّ على حكمهم في نصبهم آلهة دون الله تعالى، وليس لهم تعدِّي أمْرَ الله في أن لا يُعبد غيره».

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يعلمونَ أنَّ توحيدَ اللهِ هو الدِّينُ المُستقيمُ الذي أمَرَ اللهُ به عبادَه؛ فهم لجهلِهم يُشرِكونَ باللهِ.

كما قال تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ الروم: 30.

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (41).

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا.

أي: قال يوسفُ عليه السلامُ للشَّابين اللذينِ سألاه تعبيرَ رُؤْياهما: يا ساكِنَيِ السِّجنِ، أمَّا أحَدُكما فإنَّه يخرجُ مِن السِّجنِ، ويَسقي سيِّدَه المَلِكَ خَمرًا.

وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ.

أي: وأمَّا الآخَرُ فإنَّه يُقتَلُ، ويُعلَّقُ على خشَبةٍ، فتأكلُ الطَّيرُ مِن لحمِ رأسِه وشَحمِه.

قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ.

أي: فُرِغَ من الأمرِ الذي تسألانِ عن تَعبيرِه، وهو واقعٌ لا محالةَ.

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42).

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ.

أي: وقال يوسُفُ لصاحِبِه الذي تيقَّنَ[58] أنَّه سينجو من القتلِ، ويخرُجُ مِن السِّجنِ: اذكُرني عند سيِّدِك الملِك، وأخبِرْه بأنِّي مسجونٌ بلا ذنبٍ.

(58) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٩١) أنّ الظنَّ هاهنا بمعنى اليقين؛ لأنّ ما تقدم من قوله: ﴿قضي الأمر﴾ يلزم ذلك، وهو يقين فيما لم يخرج بعد إلى الوجود.

ثم قال: «وقول يوسف – عليه السلام –: ﴿قضي الأمر﴾ دالٌّ على وحيٍ».

ووجّه قول قتادة، فقال: «ولا يَترَتَّب قولُ قتادة إلا بأن يكون معنى قوله: ﴿قضي الأمر﴾ أي: قُضِي كلامي وقُلْتُ ما عندي وتَمَّ، والله أعلم بما يكون بعد».

ثم ساق احتمالًا آخر في تفسير الآية، فقال (٥/ ٩٢): «وفي الآية تأويل آخر، وهو: أن يكون ﴿ظن﴾ مسندًا إلى الذي قيل له: إنه يسقي ربه خمرًا.

لأنّه دخلته أُبَّهَة السرور بما بُشِّر به، وصار في رتبة مَن يؤمل حين ظنَّ وغلب على معتقده أنه ناج، وذلك بخلاف ما نزل بالآخر المُعَرَّف بالصلب».

وبيّن أنّ قوله: ﴿اذكرني عند ربك﴾ يحتمل ثلاثة احتمالات: الأول: أن يذكره بعلمه ومكانته.

الثاني: أن يذكره بمظلمته وما امتحن به بغير حق.

الثالث: أن يذكره بهما.

فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ.

أي: فأنسَى الشَّيطانُ الفَتى الذي خرجَ مِن السِّجنِ أن يَذكُرَ يوسُفَ عند المَلِك، كما أوصاه بذلك. (59)

فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ.

أي: فمكث يوسُفُ في الحبسِ مَظلومًا مَنسيًّا بضعَ سنينَ. (60)

---

(59) اختُلِف في عود الضمير في قوله: ﴿فأنساه﴾ على قولين: الأول: أنّه عائد على يوسف – عليه السلام –.

أي: نسي في ذلك الوقتِ أن يشتكي إلى الله، واعتصم بمخلوق.

الثاني: أنّه عائد على الساقي، أي: نسي ذكر يوسف عند الملك.

ورجَّح ابنُ كثير (٨/ ٤٥) القول الثاني الذي قاله مجاهد، وابن إسحاق، فقال: «هذا هو الصواب أنّ الضمير في قوله: ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ عائد على الناجي».

ولم يذكر مستندًا.

وذكر ابنُ عطية (٥/ ٩٦) أنّ قوله: ﴿وادكر﴾ يُقَوّي هذا القول، ثم علَّق بقوله: «والأمر محتمل».

(60) اختُلِف في المراد بالبضع على أقوال: الأول: أنه سبع سنين.

الثاني: من الثلاث إلى التسع.

الثالث: ما دون العشر.

الرابع: اثنا عشر.

الخامس: أربعة عشر.

السادس: خمس سنوات.

ورجَّح ابنُ جرير (١٣/ ١٧٧) مستندًا إلى اللغة أنّه مِن الثلاث إلى التسع إلى العشر، وأنه لا يكون دون الثلاث، وكذلك ما زاد على العقد إلى المئة، وما زاد على المئة، فلا يكون فيه بضع.

وذكر ابنُ عطية (٥/ ٩٢) أنّ ابن عباس قال بأنّ البضع من الثلاثة إلى العشرة، وبيَّن أنه الأَشْهَر.

سُورةُ يُوسُفَ

الآيات (43–49)

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ
يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (43) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ
وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (44) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ
بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ
عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46)
قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ
يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49)

غريب الكلمات:

عِجَافٌ: أي: مَهازيلُ في غايةِ الضَّعفِ والهُزالِ، وأصلُ (عجف): يدلُّ على هُزالٍ.

تَعْبُرُونَ: أي: تفَسّرونَ، والتَّعبيرُ: تفسيرُ ما تدُلُّ عليه الرُّؤيا، وتأويلُ إشاراتِها ورُموزِها، وأصلُ (عبر): يدلُّ على النُّفوذِ والمُضيّ في الشَّيءِ.

أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ: أي: أخلاطُ أحلامٍ، لا تأويلَ لها، وأصلُ (ضغث): يدلُّ على التِباسِ الشَّيءِ بعضِه ببعضٍ، والأحلامُ جمعُ حُلْمٍ، وهو ما يراه الإنسانُ في نومِه.

وَادَّكَرَ: أي: تَذكَّرَ، وأصلُ (ذكر): يدلُّ على خِلافِ النِّسيانِ.

أُمَّةٍ: أي: حِينٍ ومُدَّةٍ منَ الدَّهرِ، وأصلُ إطلاقِ الأُمَّةِ على المُدَّةِ الطويلةِ هو أنَّها زمَنٌ ينقَرِضُ في مِثلِه جِيلٌ، والجِيلُ يُسمَّى أُمَّةً.

دَأَبًا: أي: مُلازَمةً لعادتِكم في الزِّراعةِ، والدَّأبُ: العادةُ والمُلازَمةُ، وأصلُ (دأب): يدُلُّ على مُلازمةٍ ودَوامٍ.

تُحْصِنُونَ: أي: تدَّخِرونَ وتَخزِنونَ، والإحصانُ: الإحرازُ، وهو إلقاءُ الشَّيءِ فيما هو كالحِصنِ- وهو الحِرزُ والمَلجأُ، وأصلُ (حصن): يدُلُّ على الحِفظِ والحِياطةِ والحِرْزِ.

يُغَاثُ: أي: يُمطَرُ؛ مِن الغَيثِ: وهو المَطَرُ.

تفسير الآيات:

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (43).

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ.

أي: وقال مَلِكُ مِصرَ لجُلَسائِه: إِنِّي رأيتُ في المنامِ سبعَ بقَراتٍ سِمانٍ يأكُلهنَّ سبعُ بقراتٍ هَزْلى!

وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ.

أي: ورأيتُ في منامي سبعَ سُنبُلاتٍ خُضرٍ، وسبعَ سُنبُلاتٍ أُخرَى يابسة![61]

---

(61) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (13/177)، ((تفسير النسفي)) (2/113)، ((تفسير الشوكاني)) (3/37)، ((تفسير الرسعني)) (3/348).

قال الرسعني: (وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ أي: وسبعًا أخرَ يابساتٍ قد استُحصدنْ يأكُلْنَ الخضرَ، فحُذِف اكتفاءً بدلالةِ الأولِ عليه). ((تفسير الرسعني)) (3/349).

وممن نصَّ على أنَّ المراد: أكلُ السَّنابلِ اليابساتِ للخُضْرِ، كما وقع بين البقَرِ السِّمانِ والعِجافِ: ابن الجوزي، القرطبي، والقاسمي، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (2/442)، ((تفسير القرطبي)) (9/198، 199)، ((تفسير القاسمي)) (6/180)، ((تفسير السعدي)) (ص: 399).

وقال الشوكاني: (والمعنَى: وأرى سبعًا أُخرَ يابساتٍ، وكان قد رأى أنَّ السَّبعَ السُّنبلاتِ اليابِساتِ قد أدْرَكتِ الخضْرَ والتَوَتْ عليها حتَّى غلَبَتها، ولعلَّ عدمَ التَّعرُّضِ لذِكرِ هذا في النَّظمِ القرآنيّ للاكتفاءِ بما ذُكِر مِن حالِ البقرات). ((تفسير الشوكاني)) (3/37)، وممن نصَّ على نحو هذا المعنَى: السمعاني والواحدي والبغوي والزمخشري والرازي وأبو حيان.

ينظر: ((تفسير السمعاني)) (3/34)، ((الوسيط)) للواحدي (2/615)، ((تفسير البغوي)) (2/494)، ((تفسير الزمخشري)) (2/473)، ((تفسير ابن عطية)) (3/250)، ((تفسير الرازي)) (18/463)، ((تفسير أبي حيان)) (6/280).

يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ.

أي: قال المَلِكُ لِمن حَولَه: يا أيُّها الأشرافُ، أخبِروني بتفسيرِ رُؤيايَ إن كنتُم على عِلمٍ ودرايةٍ بذلك.

قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ (44).

قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ.

أي: قال الأشرافُ للمَلِك: رُؤياك هذه ليسَت بشيءٍ، إنَّما هي أخلاطُ أحلامٍ، لا حقيقةَ لها.

وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ.

أي: ولَسْنا على علمٍ بتفسيرِ الأحلامِ المُختلِطةِ.

وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45).

وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ.

أي: وقال الذي نجا من الفَتيَينِ اللَّذينِ كانا في السِّجنِ معَ يُوسفَ، وتذكَّرَ بعدَ مُدَّةٍ مِن الزَّمنِ (62) ما كان من شأنِ يوسُفَ مِن عِلمِه بتعبيرِ الرُّؤى، وما أوصاه به مِن ذِكرِ أمْرِه عند سَيِّدِه المَلِك.

---

(62) اختُلِف في قراءة قوله: ﴿بعد أمة﴾؛ فقرأ قوم: ﴿أُمّة﴾.
وقرأ آخرون: (أَمَهٍ).
وقرأ غيرهم: (أَمْهٍ).

أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ.

أي: أنا أُخبِرُكم بتأويلِ رُؤيا المَلِك، فابعَثوني أذهَبْ إلى يوسُفَ المَسجونِ؛ لأسألَه تعبيرَها.

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46).

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ.

أي: فأرسَلوه إليه، فقال له: يا يوسُفَ، يا كثيرَ الصِّدقِ في أقوالِك وأفعالِك، أخبِرْنا بتعبيرِ رُؤيا سبعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يأكُلُهنَّ سبعُ بقراتٍ هَزْلى، وسَبعِ سُنبُلاتٍ خُضرٍ، وسَبعِ سُنبُلاتٍ أخرى يابسةٍ.

وذكر ابنُ جرير (١٣/ ١٨٤ – ١٨٦) أنّ الأولى بمعنى: المدة من الدهر، وأنها قراءة القراء في الأمصار.

وأن القراءة الثانية بمعنى: النسيان.

وأن قراءة الجزم مصدر مِن: أمِه يأمَه أمْهًا: إذا نسي.

وبنحوه قال ابنُ عطية (٥/ ٩٦).

لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ.

أي: فسِّرْ هذه الرُّؤيا؛ لَعلِّي أرجِعُ إلى المَلِك وجُلَسائِه لِيَعلَموا تعبيرَها، ويَعلَموا عِلمَك وفَضلَك، فتخرُجَ مِن السِّجنِ.

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (47).

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا.

أي: قال يوسُفُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُفسِّرًا رُؤيا المَلِك: تَزرعونَ سَبعَ سَنواتٍ خِصبةٍ مُتتابعةٍ، على عادتِكم في الزِّراعةِ.

فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ.

أي: اترُكوا محصولَ زَرعِكم في سُنبُلِه؛ لئلَّا يَفسُدَ، وكُلوا منه قليلًا بقَدرِ حاجتِكم، وادَّخِروا أكثَرَ محصولِكم.

ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ (48).

ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ.

أي: ثمَّ يجيءُ مِن بعدِ السِّنينَ السَّبعِ الخِصبةِ سَبعُ سَنواتٍ شَديدةِ الجَدبِ، يُؤكَلُ فيهنَّ جميعُ ما ادَّخرتُم لأجلِهنَّ مِن محصولِ زَرعِكم في السنين السبعِ الخصبةِ، إلَّا قليلًا منه يبقَى في حِرزِه.

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النبيُّ – ﷺ – يدعو في القُنوتِ: اللهُمَّ أنجِ سَلَمةَ بنَ هِشامٍ، اللهمَّ أنجِ الوليدَ بنَ الوَليدِ، اللهمَّ أنجِ عيَّاشَ بنَ أبي ربيعةَ، اللهُمَّ أنجِ المُستَضعفينَ مِن المُؤمنينَ، اللهمَّ اشدُدْ وطأتَك على مُضرَ، اللهمَّ سِنينَ كسِني يوسُفَ[63])).[64]

وعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللهِ فَقَالَ: ((إنَّ النَّبِيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لَمَّا رأى مِنَ النَّاسِ إدبارًا قال: اللَّهُمَّ سَبْعٌ كسَبْعِ يُوسُفَ)).[65]

ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49).

ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ.

أي: ثمَّ يجيءُ مِن بعدِ سَبعِ السَّنواتِ المُجدبةِ عامٌ يُمطِرُ اللهُ فيه النَّاسَ الأمطارَ الكثيرةَ.[66]

---

(63) قال ابنُ حجر: (والمرادُ «بسني يوسف» ما وقَع في زمانِه عليه السلامُ مِن القحطِ في السنينَ السبعِ، كما وقَع في التنزيلِ، وقد بيَّن ذلك في الحديثِ الثاني حيث قال: «سبعًا كسبعِ يوسفَ»، وأُضِيفتْ إليه؛ لكونِه الذي أنذَر بها، أو لكونِه الذي قام بأمورِ الناسِ فيها).

((فتح الباري)) (493/2).

(64) رواه البخاري (2932) واللفظ له، ومسلم (675).

(65) أخرجه البخاري (1007)، ومسلم (2798).

(66) ذكر ابنُ عطية (٥/ ٩٩ – ١٠٠) أن قوله: ﴿يغاث﴾ جائز أن يكون من الغيث، وهو قول الجمهور، وجائز أن يكون من قولهم: أغاثهم الله إذا فرَّج عنهم، ومنه الغوث وهو الفرج.

وَفِيهِ يَعْصِرُونَ.

أي: وفي ذلك العامِ يَعصِرُ النَّاسُ الأعنابَ والدُّهنَ وغيرَ ذلك.

سُورةُ يُوسُفَ

الآيات (50-53)

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53)

غريب الكلمات:

خَطْبُكُنَّ: أي: أمرُكنَّ وشَأنُكنَّ. والخَطْبُ: الأمرُ العظيمُ، وأصلُ (خطب): يدُلُّ على الأمرِ يقَعُ؛ وإنَّما سُمِّيَ بذلك لِما يقَعُ فيه من التَّخاطُبِ والمُراجَعةِ.

حَصْحَصَ: أي: وضَحَ وتَبيَّنَ، وأصلُ (حصَّ): يدلُّ على وُضوحِ الشَّيءِ وتَمكُّنِه.

لَأَمَّارَةٌ: أي: كثيرةُ الأمرِ، وأصلُ (أمر): خلافُ النَّهيِ.

تفسير الآيات:

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50).

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ.

أي: ولَمَّا عَلِمَ المَلِكُ بتأويلِ رُؤياه قال: أخرِجوا الذي عبَّرَ رُؤيايَ هذه مِن السِّجنِ، وأحضِروه إليَّ.

فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ.

أي: فلمَّا جاء يوسفَ رسولُ المَلِك؛ ليُخرِجَه من السِّجنِ، قال له يوسُفُ: ارجِعْ إلى سيِّدِك المَلِك فاسأَلْه ما شأنُ النِّساءِ اللَّاتي قطَّعْنَ أيديَهنَّ؛ ليعلَمَ صِحَّةَ براءتي.

عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لو لبثتُ في السِّجنِ طولَ لُبْثِ يوسُفَ، لأجبتُ الدَّاعيَ[67])).[68]

إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ.

أي: إنَّ اللهَ[69] بمَكرِ النِّساءِ بي وبغيري من النَّاسِ عليمٌ، لا يخفى عليه ذلك.

---

(67) قال ابن حجر: («لأجَبْتُ الدَّاعِي» أي لأسرعتُ الإجابةَ في الخروجِ مِن السِّجنِ ولَمَا قَدَّمْتُ طَلَبَ البراءةِ، فوصَفَه بشِدَّةِ الصَّبرِ، حيثُ لم يُبادِرْ بالخروجِ، وإنَّما قاله صلَّى الله عليه وسلَّم تواضعًا، والتَّواضعُ لا يَحُطُّ مرتبةَ الكبيرِ، بل يَزيدُه رِفعةً وجلالًا، وقيلَ هو مِن جنسِ قولِه: «لا تُفَضِّلوني على يُونُسَ» وقد قيلَ: إنَّه قالَه قبلَ أنْ يعلمَ أنَّه أفضلُ مِن الجميعِ).
((فتح الباري)) (6/413).

ساق ابنُ عطية (٥/ ١٠٢ – ١٠٣) هذه الأحاديث، ثم علَّق بقوله: «وهنا اعتراض ينبغي أن ينفصل عنه، وذلك أنّ النبي – ﷺ – إنما ذكر هذا الكلام على جهة المدح ليوسف، فما باله هو، يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره، فالوجه في ذلك أنّ النبي – ﷺ – إنما أخذ لنفسه وجهًا آخر مِن الرأي له جهة أيضًا مِن الجودة، أي: لو كنت أنا لبادرت بالخروج، ثم حاولت بيان عذري بعد ذلك، وذلك أن هذه القصص والنوازل إنما هي معرضة ليقتدي الناس بها إلى يوم القيامة، فأراد رسول الله – ﷺ – حمل الناس على الأحزم من الأمور، وذلك أنّ المتعمق في مثل هذه النازلة التارك فرصة الخروج من مثل ذلك السجن ربما ينتج له من ذلك البقاء في سجنه وانصرفت نفس مخرجه عنه، وإن كان يوسف – عليه السلام – أمِن من ذلك بعلمه من الله فغيره من الناس لا يأمن ذلك فالحالة التي ذهب النبي – ﷺ – بنفسه إليها حالة حزم ومدح، وما فعله يوسف – عليه السلام – صبر عظيم وجلد».

(68) رواه البخاري (3372) ومسلم (151)، واللفظ له.

(69) ذكر ابنُ عطية (١٣/ ١٠٣) أنّ قوله: ﴿إن ربي بكيدهن عليم﴾ يحتمل احتمالين: الأول: أن يريد بالرب: الله – عز وجل –.
وفي الآية وعيد– على هذا– وتهديد.
الثاني: أن يريد بالرب: العزيز مولاه.
ففي ذلك استشهاد به وتقريع له.

قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51).

قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ.

أي: فرجَع رسولُ الملكِ إليه، وأخبرَه برسالةِ يوسفَ، فدعا الملكُ النسوةَ اللاتي قطَّعن أيديهنَّ وامرأةَ العزيزِ، فقال لهن: ما شأنُكنَّ وخبَرُكنَّ حين راودتُنَّ يوسُفَ عن نفسِه؟!

قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ.

أي: قال النِّسوةُ للمَلِك: معاذَ اللهِ أن يكونَ يوسُفُ متَّهمًا بسوءٍ، ما عَلِمْنا على يوسُفَ مِن ذنبٍ صغيرٍ ولا كبيرٍ![70]

قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ.

---

(70) ذكر ابنُ عطية (٥/ ١٠٣) أنّ الملِك لَمّا جمع النسوة وقال لهن: ما خطبكن ...
الآية كان ذلك استدعاء منه أن يعلمنه القصة، فجاوب النساءُ بجواب جيد، تظهر منه براءةُ أنفسهن جملة، وأعطين يوسف بعض براءة، وذلك أنّ الملك لما قرر لهن أنهن راودنه قلن جوابًا عن ذلك: ﴿حاش لله﴾، ثم قال: «وقد يحتمل -على بُعْدٍ- أن يكون قولهن: ﴿حاش لله﴾ في جهة يوسف - عليه السلام -، وقولهن: ﴿ما علمنا عليه من سوء﴾ ليس بإبراء تام، وإنما كان الإبراء التام وصفَ القصة على وجهها حتى يتقرر الخطأ في إحدى الجهتين، ولو قُلْنَ: ما علمنا عليه إلا خيرًا. لكان أدخل في التبرية.
وقد بوَّب البخاري على هذه الألفاظ على أنها تزكية، وأدخل قول أسامة بن زيد في حديث الإفك: أهلك ولا نعلم إلا خيرًا.
وأمّا مالك؟ فلا يقنع بهذا في تزكية الشاهد، لأنه ليس بإثبات العدالة».

أي: قالت امرأةُ العزيزِ: الآن تبيَّنَ الحَقُّ وظهر، أنا راودتُ يوسُفَ عن نفسِه، وإنَّه لَمِنَ الصَّادقِينَ في قولِه: هي راودَتْني عن نفسي.

ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52).

ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ.

أي: قالت امرأةُ العزيزِ: ذلك الإقرارُ والاعترافُ بالحَقِّ؛ ليعلمَ يوسُفُ أنِّي لم أكذِبْ عليه، ولم أرْمِه بالذّنبِ في حالِ غَيبتِه عنِّي.

وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ.

أي: وصدْعتُ بالحَقِّ؛ لأنَّ اللهَ لا يسَدِّدُ حِيَلَ مَن خان الأماناتِ، بل يُبطِلُ كَيدَهم، ويَحرِمُهم الهِدايةَ.(71)

---

(71) اختُلِف في قوله: ﴿ذلك ليعلم أني لم اخنه بالغيب﴾ على قولين: الأول: أنّه مِن قول يوسف.

واختُلِف القائلون بهذا القول على وجهين: الوجه الأول: أنّ هذه المقالة مِن يوسف هي مُتَّصِلة بقوله للرسول: ﴿إن ربي بكيدهن عليم﴾، وفي الكلام تقديم وتأخير وهو قول ابن جريج.

وعلَّق عليه ابنُ عطية (٥/ ١٠٤) بقوله: «فالإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ -على هذا التأويل- هي إلى بقائه في السجن، والتماسه البراءة، أي: هذا ليعلم سيدي أنِّي لم أخنه.

الوجه الثاني: أنّ يوسف قال هذه المقالة حين قالت امرأة العزيز كلامها، إلى قولها: ﴿وإنه لمن الصادقين﴾، وهو قول ابن عباس.

ولم يذكر ابنُ جرير غيرَ هذا القولَ، واستشهد له باللغة، والنظائر، وأقوال السلف، فقال:» واتَّصَلَ قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالغَيْبِ﴾ بقول امرأة العزيز: ﴿أنا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وإنَّهُ لَمِنَ الصّادِقِينَ﴾ المعَرِّفَة السّامِعِين لمعناه، كاتِّصال قول الله تعالى: ﴿وكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ بقول المرأة: ﴿وجَعَلُوا أعِزَّةَ أهْلِها أذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤]، وذلك أنّ قوله: ﴿وكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ خَبَرُ مبتدإٍ.

وكذلك قول فرعون لأصحابه في سورة الأعراف: ﴿فماذا تأمرون﴾، وهو مُتَّصِلٌ بقول الملأ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ [الأعراف: ١١٠]".

وعلَّق ابنُ عطية على هذا القول بقوله: «فالإشارة -على هذا- إلى إقرارها، وصنع الله تعالى فيه».

وانتقده مستندًا للسياق، فقال: «وهذا يضعف؛ لأنّه يقتضي حضورُه مع النسوة عند الملك، وبعد هذا يقول الملك: ﴿ائتوني به﴾».

ثم بَيَّن أنه على هذا القول يجيء قوله: ﴿وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ «بتقدير: وليعلم أنّ الله لا يهدي كيد الخائنين».

الثاني: أنّه مِن قول المرأة، ذكره ابنُ عطية (٥/ ١٠٤)، وعلَّق عليه بقوله (٥/ ١٠٥): «أي: قولي هذا وإقراري ليعلم يوسف أنِّي لم أخنه في غيبته بأن أكذب عليه أو أرميه بذنب هو بريء منه، والتقدير على هذا التأويل: توبتي وإقراري ليعلم أنِّي لم أخنه، وأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين».

واختُلِف في قوله: ﴿وما أبرئ نفسي ...﴾، هل هي من كلام يوسف أم من كلام المرأة، حسب التي قبلها، وذكر ابنُ عطية (٥/ ١٠٥) أنّ مَن قال إنها من كلام يوسف روى في ذلك: عن أنس بن مالك أنّ رسول الله - ﷺ - قال: لما قال يوسف: أني لم أخنه بالغيب.

قال له جبريل: ولا حين هممت وحللت سراويلك.

ومَن قال بأنّه مِن قول المرأة وجَّه كلامَها إلى الاعتذار عن وقوعها فيما يقع فيه البشر من الشهوات، كأنها قالت: وما هذا ببِدْعٍ، ولا ذلك نكير على البشر فأُبرِّئ أنا منه نفسي، والنفوس أمارات بالسوء مائلة إليه.

وانتقد ابنُ تيمية (٤/ ٤٥ - ٥٢ بتصرف) قولَ مَن قال بأنّ الآيتين مِن قول يوسف، وهو قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك، والسدي، وغيرهم، فقال: «وهو قول في غاية الفساد، ولا دليل عليه، بل الأدلة تدُلُّ على نقيضه».

ورجَّح القولَ بأنّه مِن قول المرأة مستندًا إلى السياق، والدلالة العقلية، وذلك: ١ - أنّ حال يوسف الظاهر مِن القرآن أنّه صاحب نفس زكية عفيفة لم تستجب للإغراء الشديد، فكيف يقول: ﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء﴾ وهو يعلم أنّ نفسه بريئة زكية غير أمارة. ٢ - أنّ قوله: ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾ إذا كان معناه على ما زعموه أن يوسف أراد أن يعلم العزيز أني لم أخنه في امرأته على قول أكثرهم؛ أو ليعلم الملك أو ليعلم الله لم يكن هنا ما يشار إليه، فإنه لم يتقدم مِن يوسف كلام يشير به إليه، ولا تقدم أيضًا ذكرَ عفافه واعتصامه؛ فإن الذي ذكره النسوة قولهن: ﴿ما علمنا عليه من سوء﴾.

وقول امرأة العزيز: ﴿أنا راودته عن نفسه﴾.

وهذا فيه بيان كذبها فيما قالته أوَّلًا، ليس فيه نفس فعله الذي فعله هو.

فقول القائل: إنّ قوله: ﴿ذلك﴾ من قول يوسف، مع أنّه لم يتقدم منه هنا قول ولا عمل؛ لا يَصِحُّ بحال. ٣ - أنّ المعنى على هذا التقدير -لو كان هنا ما يشار إليه مِن قول يوسف أو عمله-: إنّ عِفَّتي عن الفاحشة كان ليعلم العزيزُ أنِّي لم أخنه، ويوسف - عليه السلام - إنّما تركها خوفًا مِن الله ورجاء لثوابه؛ لا لأجل مجرد علم مخلوق.

قال الله تعالى: ﴿ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾.

فأخبر أنّه رأى برهان ربه، وأنّه مِن عباده المخلصين.

ومَن ترك المحرمات ليعلم المخلوق بذلك لم يكن هذا لأجل برهان من ربه، ولم يكن بذلك مخلصًا، فهذا الذي أضافوه إلى يوسف إذا فعله آحادُ الناس لم يكن له ثواب من الله؛ بل يكون ثوابه على مَن عمل لأجله. ٤ – أنّ الناس عادتهم في مثل هذا يعرفون بما عملوه مَن لذلك عنده قدر، وهذا يناسب لو كان العزيز غيورًا، وللعِفَّة عنده جزاء كثير، والعزيز قد ظهرت عنه مِن قلة الغيرة وتمكين امرأته مِن حبس يوسف مع الظالمين مع ظهور براءته ما يقتضي أنّ مثل هذا ينبغي في عادة الطباع أن يقابل على ذلك بمواقعة أهله، فإنّ النفس الأمارة تقول في مثل هذا: هذا لم يعرف قدر إحساني إليه وصوني لأهله؛ بل سلَّطها ومكَّنها.

فكثير من النفوس لو لم يكن في نفسها الفاحشة إذا رأت مَن حاله هذا تفعل الفاحشة؛ إما نكاية فيه ومجازاة له على ظلمه، وإمّا إهمالًا له لعدم غيرته وظهور دياثته، ولا يصبر في مثل هذا المقام عن الفاحشة إلا من يعمل لله خائفًا منه، وراجيًا لثوابه، لا من يريد تعريف الخلق بعمله. ٥ – أنّ الخيانة ضد الأمانة، وهما من جنس الصدق والكذب، ولهذا يقال: الصادق الأمين، ويقال: الكاذب الخائن.

وهذا حال امرأة العزيز، فإنها لو كذبت على يوسف في مغيبه وقالت: راودني.

لكانت كاذبة وخائنة، فلما اعترفت بأنها هي المراودة كانت صادقة في هذا الخبر أمينة فيه، ولهذا قالت: ﴿وإنه لمن الصادقين﴾.

فأخبرت بأنه صادق في تبرئته نفسه دونها.

فأما فعل الفاحشة فليس من باب الخيانة والأمانة، ولكن هو من باب الظلم والسوء والفحشاء كما وصفها الله بذلك في قوله تعالى عن يوسف: ﴿معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون﴾.

ولم يقل هنا: الخائنين، ثم قال تعالى: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾.

ولم يقل: لنصرف عنه الخيانة. ٦ – أنّ النفوس منقسمة إلى مرحومة وأمارة كما قال القرآن: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾.

وقد علِمنا قطعًا أنّ نفس امرأة العزيز من النفوس الأمارة بالسوء، وأمّا نفس يوسف – عليه السلام – فإن لم تكن من النفوس المرحومة عن أن تكون أمّارة فما في الأنفس مرحوم؛ فإنّ مَن تدَّبر قصة يوسف علم أن الذي رُحم به وصرف عنه من السوء والفحشاء من أعظم ما يكون، ولولا ذلك لما ذكره الله في القرآن وجعله عبرة، وما من أحد من الصالحين الكبار والصغار إلا ونفسه إذا ابتليت بمثل هذه الدواعي أبعد عن أن تكون مرحومة من نفس يوسف.

وعلى هذا التقدير: فإن لم تكن نفس يوسف مرحومة فما في النفوس مرحومة، فإذًا كل النفوس أمارة بالسوء، وهو خلاف ما في القرآن. ٧ – أن هذا الكلام فيه –مع الاعتراف بالذنب– الاعتذار بذكر سببه، فإنّ قولها: ﴿أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ فيه اعتراف بالذنب، وقولها: ﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء﴾ إشارة تطابق لقولها: ﴿أنا راودته﴾، أي: أنا مُقِرَّة بالذنب ما أنا مبرئة لنفسي، ثم بينت السبب فقالت: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ فنفسي من هذا الباب، فلا ينكر صدور هذا منّي، ثم ذكرت ما يقتضي طلب المغفرة والرحمة، فقالت: ﴿إن ربي غفور رحيم﴾.

فإن قيل: فهذا كلام مَن يُقِرُّ بأن الزنا ذنب، وأن الله قد يغفر لصاحبه.

قيل: نعم، والقرآن قد دل على ذلك حيث قال زوجها: ﴿واستغفري لذنبك﴾.

وهذا دليل أنهم كانوا يرون ذلك ذنبًا ويستغفرون منه وإن كانوا مع ذلك مشركين؛ إذ الفواحش مما اتَّفق اهل الأرض على استقباحها.٨ – أنّ الله لم يذكر عن نبيٍّ ذنبًا إلا ذكر توبته منه، ويوسف لم يذكر القرآن أنه فعل مع المرأة ما يتوب منه، وما نقل عن وقوعه في بعض مقدمات الذنب كحل السراويل ونحوها فهذا ليس مما ينقل عن النبي، بل عن أهل الكتاب، وقولهم في الأنبياء معروف، فلو لم يكن معنا ما يرد نقلهم لم نصدقهم فيما لم نعلم صدقهم فيه، فكيف نصدقهم فيما قد دل القرآن على خلافه.

والقرآن قد أخبر عن يوسف مِن الاستعصام والتقوى والصبر في هذه القضية ما لم يذكر عن أحد نظيره، فلو كان يوسف قد أذنب لَكان إما مصرًّا وإما تائبًا، والإصرار ممتنع، فتعيَّن أن يكون تائبًا، واللهُ لم يذكر عنه توبة في هذا ولا استغفارًا كما ذكر عن غيره من الأنبياء؛ فدلَّ ذلك على أن قوله: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾ إنما يناسب حال امرأة العزيز لا يناسب حال يوسف.

وانتقد ابنُ القيم (٢/ ٦٤ – ٦٥ بتصرف) القول بأنه من قول يوسف، ورجَّح أنّه من قول امرأة العزيز مستندًا إلى اللغة، والسياق، وذلك:

١ – أنّه متصل بكلام المرأة السابق، وهو قولها: ﴿الآن حصحص الحق أنا راودته﴾، ومن جعله من قوله فإنه يحتاج إلى إضمار قول لا دليل عليه في اللفظ بوجه، والقول في مثل هذا لا يُحْذَف لئلا يوقع في اللبس، فإن غايته أن يحتمل الأمرين، فالكلام الأول أولى به قطعًا.

٢ – أنّ يوسف لم يكن حاضرًا وقت مقالتها هذه، بل كان في السجن، والسياق صريح في ذلك فإنّه لما أرسل الملك إليه يدعوه قال للرسول: ﴿ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾.

٣ – أنّ الضمائر كلها في نسق واحد، وذلك قول النسوة: ﴿ما علمنا عليه من سوء﴾، وقول امرأة العزيز: ﴿أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾، فهذه خمسة ضمائر بين بارز ومستتر، ثم اتصل بها قوله: ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾، فهذا هو المذكور أولًا بعينه، فلا شيء يفصل الكلام عن نظمه ويضمر فيه قولٌ لا دليل عليه.

وبنحوه قال ابنُ كثير (٨/ ٥٠ – ٥١).

وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (53).

وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي.

أي: ولسْتُ أُبرِّئُ نفسي من الخطأِ والهَمِّ بذلك الإثمِ، والقيامِ بالمكائدِ والحِيَلِ؛ لأجلِ ذلك.

إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ.

أي: لا أدَّعي براءةَ نفسي؛ لأنَّ نُفوسَ العبادِ كثيرًا ما تأمُرُهم بما تَهواه من المعاصي، إلَّا مَن رَحِمَ الله فعصَمَهم.[72]

---

(72) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (209/13)، ((تفسير القرطبي)) (210/9)، ((تفسير ابن كثير)) (394/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 400)، ((تفسير ابن عاشور)) (5/13).

قال ابنُ عطية: (النَّفْسَ اسمُ جنسٍ، فصحَّ أن تقعَ مَا مكان «من»؛ إذ هي كذلك في صفاتِ مَن يعقلُ، وفي أجناسِه... ويجوزُ أن تكونَ مَا ظرفيةً، والمعنى: إنَّ النفسَ لأمارةٌ بالسوءِ إلا مدةَ رحمةِ الله العبدَ، وذهابِه عن اشتهاءِ المعاصي).

((تفسير ابن عطية)) (254/3).

إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ.

أي: إنَّ اللهَ مِن شأنِه أنَّه كثيرُ الصَّفحِ عن ذنوبِ عبادِه التَّائبينَ، فيَستُرُها عليهم، ويتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بهم فلا يعذِّبُهم، ويقبَلُ توبتَهم، ويوفِّقُهم للخيرِ.[73]

(73) قال ابنُ القيِّم: (فتأمَّلْ: ما أعجَبَ أمْرَ هذه المرأةِ؛ أقَرَّت بالحَقِّ، واعتَذَرت عن محبوبِها، ثمَّ اعتَذَرت عن نَفسِها، ثمَّ ذَكَرت السَّببَ الحامِلَ لها على ما فعَلَت، ثمَّ ختمت ذلك بالطَّمَعِ في مَغفرةِ اللهِ ورَحمتِه، وأنَّه إن لم يرحَمْ عَبدَه وإلَّا فهو عُرضةٌ للشَّرِّ!! فوازِنْ بين هذا وبين تقديرِ كَونِ هذا الكلامِ كَلامَ يُوسُفَ عليه السَّلامُ لفظًا ومعنًى، وتأمَّلْ ما بين التَّقديرينِ من التفاوُتِ! ولا يُستبعَدُ أن تَقولَ المرأةُ هذا وهي على دينِ الشِّركِ؛ فإنَّ القومَ كانوا يُقِرُّونَ بالرَّبِّ سُبحانه وتعالى وبحَقِّه، وإن أشركوا معه غيرَه، ولا تنسَ قَولَ سَيِّدِها لها في أوَّلِ الحالِ: وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ).
((روضة المحبين)) (ص: 321).

سُورَةُ يُوسُفَ

الآيات (54-57)

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (57)

غريب الكلمات:

أَسْتَخْلِصْهُ: أي: أجعَلْه مِن خُلَصائي دونَ غيري، أو أُفوِّضْ إليه أمرَ مملكتي، وأصْلُ (خلص): يدلُّ على تنقيةِ الشَّيءِ وتهذيبِه.

مَكِينٌ: أي: مُتمكِّنٌ ممَّا أردتَ، نافذُ القولِ، أو: ذو مَكانةٍ ومنزِلةٍ خاصَّةٍ.

يَتَبَوَّأُ: أي: يَنزِلُ، وأصْلُ (بوأ): يدلُّ على الرُّجوعِ إلى الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ (54).

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي.

أي: وقال ملِكُ مصرَ لَمَّا عَلِمَ بَراءةَ يوسُفَ، وعرَفَ فضْلَه وعِلْمَه، وحِكمتَه وحُسْنَ خُلُقِه، وصَبْرَه وعِفَّتَه: ائْتوني بيوسُفَ مِن السِّجنِ أجعَلْه مِن خاصَّتي وأهلِ مَشورَتي، خالِصًا لنَفْسي لا يُشارِكُني فيه أحدٌ.

فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ.

أي: فلَمَّا كلَّمَه الملِكُ، ورأى فضْلَه وخِصالَه الحميدةَ، زادت مكانتُه لديه، فقال له: إنَّك قد صِرْتَ عندنا ذا مَكانةٍ وأمانةٍ، مُتمكِّنًا ممَّا أردْتَ، أمينًا على ما نأْتَمِنُك عليه.[74]

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55).

(74) ذكر ابنُ عطية (٥/ ١٠٧) أن فرقة قالت: ﴿أمين﴾ بمعنى: آمِن.
وانتقده مستندًا للسياق، والدلالة العقلية، فقال: «وهذا ضعيف؛ لأنّه يخرج مِن نمط الكلام، ويَنْحَطُّ إكرامُ يوسف كثيرًا».

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ.

أي: قال له يوسُفُ طلبًا للمصلحَةِ العامَّةِ: وكِّلْني على خَزائنِ الأموالِ والطَّعامِ في أرضِ مصرَ؛ لحفْظِها وتدْبيرِها.

إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ.

أي: إنِّي حافظٌ وخازنٌ، أمينٌ للخَزائنِ الَّتي استودعْتَني، ذو عِلْمٍ وبصَرٍ بما أتولَّاه منها، فأعْلَمُ كيفيَّةَ تدْبيرِها والتَّصرُّفِ فيها، دون أنْ يضيعَ شيءٌ منها في غيرِ محَلِّه.(75)

وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56).

---

(75) اختُلِف في المراد بقوله: ﴿إني حفيظ عليم﴾ على أقوال: الأول: أنّ المعنى: إني حفيظ لما استودعتني، عليم بما وليتني.

الثاني: حفيظ بالحساب، عليم بالألسن.

الثالث: حفيظ بتقديره في السنين الخصبة، عليم بسني المجاعة.

ورجّح ابنُ جرير (١٣/ ٢٢٠) مستندًا إلى السياق القولَ الأول الذي قاله قتادة، وشيبة، وابن إسحاق، فقال: «لأنّ ذلك عقيب قوله: ﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾، ومسألته الملكِ استكفاءَه خزائن الأرض، فكان إعلامُه بأنّ عنده خبرة في ذلك وكفايته إياه أشبه من إعلامه حفظه الحساب، ومعرفته بالألسن».

وذكر ابنُ عطية (٥/ ١٠٨) أنّ ﴿حفيظ عليم﴾ صفتان تَعُمُّ وجوه التثقيف والحيطة، لا خلل معهما لعامل.

وانتقد ما جاء في هذه الأقوال من تخصيص، مستندًا لدلالة العموم، فقال: «وهذا كله تخصيص لا وجه له، وإنّما أراد باتصافه أن يعرف الملك بالوجه الذي به يستحق الكون على خزائن الأرض، فاتّصف بأنه يحفظ المجبى مِن كل جهة تحتاج إلى الحفظ، ويعلم التناول أجمع».

وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ.

أي: ومثْلَ ما أنعَمْنا على يوسُفَ بإنْجائِه مِن السِّجنِ، وتقْرِيبِه إلى قلْبِ الملِكِ، أقْدَرْناه في أرضِ مصرَ، يتَّخذُ منها منزِلًا حيث يشاءُ.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ نَشَاءُ بالنُّونِ، بجَعلِ الفِعلِ للَّهِ تعالى.[76]

2- قِراءةُ يَشَاءُ بالياءِ، بجَعلِ الفِعلِ لِيوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.[77]

نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ.

أي: نُصيبُ برحْمتِنا في الدُّنيا والآخِرةِ مَن نشاءُ مِن عِبادِنا، كما رَحِمْنا يوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

---

(76) قرأ بها ابنُ كثيرٍ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/295).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجَّة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 196)، ((الكشف عن وجوه القراءات السبع)) لمكي بن أبي طالب (2/11).
(77) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/295).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 196).
قال ابنُ عاشورٍ: (قرأ الجمهورُ حَيْثُ يَشَاءُ بياءِ الغَيبةِ، وقرأ ابنُ كثيرٍ حَيْثُ نَشَاءُ بنونِ العظمةِ، أي: حيث يشاءُ اللهُ، أي: حيث نأمرُه أو نُلهمُه، والمعنى متَّحدٌ؛ لأنَّه لا يشاء إلَّا ما شاءه اللهُ).
((تفسير ابن عاشور)) (13/10).

وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ.

أي: ولا نُبْطِلُ جَزاءَ الَّذينَ أحْسَنوا أعمالَهم بالطَّاعةِ، وترْكِ المَعصيةِ، فنُثيبُهم في الدُّنيا والآخِرةِ كما أثَبْنا يوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

كما قال تعالى: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ النحل: 30.

وقال سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا الكهف: 30.

وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (57).

أي: ولَثوابُ اللَّهِ في الآخِرةِ خيرٌ مِن ثَوابِ الدُّنيا، للمُؤمنينَ المتَّقينَ، الَّذينَ يُؤمنونَ بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، ويمتثِلونَ ما أمَرَ اللَّهُ تعالى به، ويجْتنِبونَ ما نَهَى عنه.

سُورَةُ يُوسُفَ

الآيات (58–62)

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ
ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي
بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (60) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (61) وَقَالَ
لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
(62)

غريب الكلمات:

مُنْكِرُونَ: أي: لا يعرِفونَه، وأصْلُ (نكر): يدلُّ على خِلافِ المعرفةِ الَّتي يسكُنُ إليها القلْبُ.

بِجَهَازِهِمْ: الجهازُ: ما يَحتاجُ إليه المُسافِرُ مِن زادٍ، ومَتاعٍ، وكُلِّ ما يُحمَلُ، وأصلُ (جهز): يدُلُّ على شَيءٍ يُحوَى.

أُوفِي: أي: أُتِمُّ ولا أَبْخَسُ، وأصْلُ (وفي): يدلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ.

الْمُنْزِلِينَ: أي: المُضِيفينَ، وأصلُ (نزل): يدُلُّ هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه.

رِحَالِهِمْ: أي: أمتعتِهم وأوعِيَتِهم، جمعُ رَحْلٍ: وهو كلُّ شيءٍ يعَدُّ للرَّحيلِ؛ مِن وِعاءٍ للمَتاعِ ومَركبٍ للبَعيرِ، وأصْلُ (رحل): يدلُّ على مُضِيٍّ في سفَرٍ.

بِضَاعَتَهُمْ: أي: أثمانَ الطَّعامِ التي دَفَعوها.

انْقَلَبُوا: أي: رجَعوا، وانصرَفوا، وأصْلُ (قلب): صرْفُ الشَّيءِ عن وجْهٍ إلى وجْهٍ، أو ردُّه مِن جِهةٍ إلى جهةٍ.

تفسير الآيات:

وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (58).

أي: وجاء إخوةُ يوسُفَ إلى مِصرَ لَمَّا أصابَهم القحْطُ؛ ليأْتوا بالطَّعامِ لأهليهم، فدخَلوا على يُوسفَ، فعرَفَهم حين رآهم، وهم لا يعرِفونَه.[78]

وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (59).

وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ.

أي: ولَمَّا أوفَى يوسُفُ إخوتَه الطَّعامَ، وحمَّلَ لكلِّ واحدٍ منهم بعيرَه، قال لهم: ائْتوني بأخيكم هذا الَّذي ذكَرتُموه لي مِن أبيكم؛ لِتَزْدادوا حِملَ بعيرٍ آخرَ.

ثم قال يوسُفُ ترْغيبًا لإخوتِه في الرُّجوعِ إليه:

---

(78) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (13/222)، ((تفسير القرطبي)) (9/220)، ((تفسير ابن كثير)) (4/397)، ((تفسير السعدي)) (ص: 401).

عرَفهم يوسفُ عليه السلام لأنَّه فارَقَهم رجالًا، وهم لم يعرفوه؛ لأنَّهم فارَقوه صَبيًّا، وهو الآنَ رجلٌ عليه أُبَّهَةُ الملك، ورَونقُ الرئاسةِ، وعندَه الخَدَمُ والحشَمُ، ولعدمِ خطورِه ببالِهم لطولِ العهدِ، مع هيبةِ الملكِ وعزِّ السلطانِ، وقيل: لتوهُّمِهم أنَّه هَلَكَ، وقيلَ: كانوا بَعيدًا منه، فلم يَعْرِفُوهُ، وقيلَ غيرُ ذلك.

ينظر: ((تفسير البيضاوي)) (3/168)، ((تفسير الخازن)) (2/538)، ((تفسير البقاعي)) (10/145)، ((تفسير الشوكاني)) (3/44).

أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ.

أي: ألَا ترونَ أنَّ عادتي هي إتمامُ الكيلِ دائمًا، وأنِّي لا أبْخَسُ النَّاسَ شيئًا.

وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ.

أي: وأنا خيرُ المُضْيفينَ في مصرَ لِمَن نزَلَ بي، وسأُحسِنُ إليكم، وأُكرِمُكم إذا أتيتُم بأخيكم.

فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ (60).

أي: فإنْ لم تُحْضِروا إليَّ أخاكم حين تأْتونَ إليَّ في المرَّةِ التَّاليةِ، فليس لكم عندي طعامٌ أكيلُه لكم، ولا تقْرَبُوا أرضَ مصرَ.

قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (61).

أي: قال إخوةُ يوسُفَ لِيوسُفَ حين أمَرَهم أن يأتوا إليه بأخيهم: سنسأَلُ أباه يعقوبَ أن يترُكَه يسافِرُ معنا، وسنجتهِدُ في إقناعِه حتَّى نأْتِيَ به معنا، وإنَّا لفاعِلونَ ما أمرْتَنا به.

وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (62).

وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ.

أي: وقال يوسُفُ لغِلمانِه: اجْعَلوا أثمانَ ما اشتَرَوه من الطَّعامِ في أمتِعَتِهم، من حيث لا يشعُرونَ.(79)

(79) ذكر ابنُ جرير (١٣/ ٢٢٨ – ٢٢٩) أنّ العِلَّة التي من أجلها أمر يوسف فتيانه أن يجعلوا بضاعة إخوته في رحالهم تحتمل ثلاثة احتمالات: الأول: ما ذكره الكلبيُّ مِن خشيته أن لا يكون عند أبيه دراهم، فيضر أخذ ذلك منهم به، وأحب أن يرجع إليه.

الثاني: أنّه أراد أن يَتَّسع بها أبوه وإخوته مع حاجتهم إليه، فردَّه عليهم مِن حيث لا يعلمون تكرُّمًا وتفضُّلًا.

الثالث: أن يتحرجوا مِن أخذ الطعام بلا ثمن فيكون ذلك أدعى لهم إلى العوْد.

ونقل ابنُ عطية (٥/ ١١٣) احتمالًا رابعًا أنّه قيل: إنّ يوسف – عليه السلام – فعل ذلك ليجعلها توطئة لجعل السقاية في رحل أخيه بعد ذلك، لِيُبَيِّن أنه لم يسرق لِمَن يتأمل القصة.

وانتقد الاحتمال الثالث مستندًا للسياق، والدلالة العقلية، فقال: «وهذا ضعيف من وجوه، وسرورهم بالبضاعة وقولهم: ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ يكشف أنّ يوسف – عليه السلام – لم يقصد هذا، وإنما قصد أن يستميلهم ويصلهم فيرغبهم في نفسه كالذي كان.

وخص البضاعة بعينها دون أن يعطيهم غيرها من الأموال لأنها أوقع في نفوسهم، إذ يعرفون حلها، وماله هو إنما كان عندهم مالًا مجهول الحال، غايته أن يستجاز على نحو استجازتهم قبول الميرة».

ثم قال: «ويظهر أنّ ما فعل يوسف من صلتهم، وجبرهم في تلك الشدة كان واجبًا عليه، إذ هو ملك عدل، وهم أهل إيمان ونبوة».

ثم رجَّح أنّه أراد استمالتهم وصلتهم، فقال: «والظاهر من القِصَّة أنه إنما أراد الاستئلاف، وصلة الرَّحِم».

لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

أي: لكي يعْرِفوا بِضاعتَهم إذا انصْرَفوا إلى أهلِهم، وفتَحوا أمتِعَتَهم فوجَدوها؛ لكي يرْجِعوا إلينا مرَّةً أُخرى.

سُورةُ يُوسُفَ

الآيات (63–66)

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ
(63) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ (64) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ
بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65) قَالَ
لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ
قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (66)

غريب الكلمات:

مَتَاعَهُمْ: أي: طعامَهم، أو أوعِيَتَهم، والمتاعُ: كُلُّ ما يُنتفَعُ به على وجهٍ ما، وأصْلُ (متع): يدلُّ على منفعَةٍ.

مَا نَبْغِي: أيْ: أيَّ شيءٍ نطلُبُ وراءَ هذا، أو ماذا نريدُ؟ وأصْلُ (بغي): يدل على طلَبِ الشَّيءِ.

نَمِيرُ أَهْلَنَا: أي: نَجلِبُ إليهم الطَّعامَ؛ مِن قَولِهم: مار أهلَه يَميرُهم: إذا حمَلَ إليهم أقواتَهم مِن غيرِ بَلدِه.

كَيْلَ بَعِيرٍ: أي: حِمْلَ جَمَلٍ، يُكَالُ لَنا، وقيل: حِمْلَ حمارٍ.

مَوْثِقًا: أي: عهدًا وميثاقًا، وأصْلُ (وثق): يدلُّ على عقْدٍ وإحكامٍ.

يُحَاطَ بِكُمْ: أي: تُمْنَعوا وتُغْلَبوا؛ مِن الإحاطة: وهو لفظٌ عامٌّ لجميعِ وُجوهِ الغَلَبة والقَسرِ، وأصْلُ (حوط): يدلُّ على الشَّيءِ يُطِيفُ بالشَّيءِ.

وَكِيلٌ: أي: شَهيدٌ علينا، كفيلٌ بالوفاءِ، وأصلُ (وكل): يدلُّ على اعتمادِ غيرِك في أمرِك.

تفسير الآيات:

فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (63).

فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ.

أي: فلَمَّا رجَعَ إخوةُ يوسُفَ إلى أبيهم يعقوبَ قالوا له: يا أبانا مُنِعَ منَّا الكيلُ في المستقبَلِ إنْ لم تُرسِلْ معنا أخانا الصَّغيرَ إلى مصرَ.

فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ.

أي: فأرْسِلْ معنا أخانا؛ حتَّى يُمْكِنَنا العودةُ إلى مصرَ وأخْذُ الطَّعامِ.

وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ.

أي: وإنَّا لأخينا لحافِظونَ مِن أنْ ينالَه في سَفَرِه سوءٌ، فلا تَخَفْ عليه.

قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64).

قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ.

أي: قال يعقوبُ لأبنائِه: ماذا أفادَ ائتِمانُكم على أخيه يوسُفَ مِن قبلُ، حتَّى آمنَكم على أخيكم هذا الَّذي تسألونَني أنْ أُرسِلَه معكم؟ لقد فرَّطْتُم في يوسُفَ وحُلْتُم بيني وبينه، فكيف آمنُكم على أخيه؟! فلا أثِقُ بالتِزامِكم وحفْظِكم.

فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا.

أي: فاللَّهُ خيرٌ حافظًا لأخيكم منكم ومِن كلِّ أحدٍ.[80]

(80) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (232/13)، ((تفسير الماوردي)) (57/3)، ((تفسير القاسمي)) (195/6).
الأكثرونَ على أنَّ قولَه: فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا يدلُّ على أنَّه أَذِنَ في ذَهابِ ابنِه بنيامين في ذلك الوقتِ.
يُنظر: ((تفسير الرازي)) (480/18).
وقال الألوسي: (هذا- كما ترَى- ميلٌ منه عليه السَّلامُ إلى الإذْنِ والإرسالِ؛ لِما رأى فيه من المصلحةِ، وفيه أيضًا من التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى ما لا يخفى).
((تفسير الألوسي)) (12/7).
وقال ابنُ عاشورٍ: (وهم قدِ اقتنعوا بجوابِه، وعَلِموا منه أنَّه مُرسِلٌ معهم أخاهم؛ ولذلك لم يراجعوه في شأْنِه).
((تفسير ابن عاشور)) (16/13).
وقال آخرون: لا يدلُّ قولُه: فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا على أنَّه أَذِنَ في ذَهابِ ابنِه بنيامين في ذلك الوقتِ، والآيةُ على هذا القولِ فيها وجهانِ: الأوَّلُ: التَّقديرُ أنَّه لو أَذِنَ في خُروجِه معهم لكان في حفْظِ اللهِ، لا في حفْظِهم.
الثَّاني: أنَّه لَمَّا ذكَرَ يُوسفَ قال: فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا أي: ليوسفَ؛ لأنَّه كان يعلَمُ أنَّه حيٌّ.
يُنظر: ((تفسير الرازي)) (480/18).

وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

أي: واللَّهُ أرحمُ الرَّاحمينَ بخَلْقِه، وسيرحَمُ ضعْفي وكِبَري، ووَجْدي بفقْدِ وَلَدي، وأرجو منه أنْ يحفَظَه ويرُدَّه عليَّ.

وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65).

وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ.

أي: ولَمَّا فتَحَ إخوةُ يوسُفَ متاعَهم الَّذي حمَلوه مِن مصرَ، وجَدوا ثمَنَ الطَّعامِ الَّذي دفَعوه إلى يوسُفَ قد رجَعَ إليهم في رِحالِهم.

قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ لأبيهم يعقوبَ حينذاك؛ ترغيبًا في إرسالِ أخيهم معهم، وتطييبًا لنفْسِه: يا أبانا ماذا نُريدُ بعدَ هذا الإكرامِ؟! هذا ثمَنُ الطَّعامِ رُدَّ إلينا بعدَ أنْ أُوفِيَ لنا كيلُنا![81]

---

(81) ذكر ابنُ عطية (٥/ ١١٥) أنّ ﴿ما﴾ تحتمل ثلاثة احتمالات:

الأول: أن تكون استفهامًا.

وهو قول قتادة.

وتكون ﴿نبغي﴾ مِن البُغْية، أي: ما نطلب بعد هذه التكرمة؟ هذا مالُنا رُدَّ إلينا مع ميرتنا.

وبنحوه قال ابنُ جرير (١٣/ ٢٣٣).

وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا.

أي: ونشْتَري لأهلِنا طعامًا مِن مصرَ إذا أرسَلْتَ معنا أخانا، ونحفَظُه ممَّا تخافُ عليه.

وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ.

أي: ونزدادُ حِمْلَ بعيرٍ لأخينا،(82) ذلك(83) حِمْلٌ يسيرٌ.

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (66).

الثاني: أن تكون نافية، أي: ما بقي لنا ما نطلب.

ونسبه للزجاج.

الثالث: أنّ تكون نافية، و﴿نبغي﴾ مِن البغي، أي: ما تعدّينا فكذبنا على هذا الملِك، ولا في وصف إجماله وإكرامه، هذه البضاعة مردودة.

(82) والمعنى: أنَّه يُكالُ لهم حملُ جملٍ مِن أجلِ أخيهم؛ لأنَّه كان يُعطي باسمِ كلِّ رجلٍ حملَ بعيرٍ.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (502/2).

(83) المشارُ إليه في قوله: ذَلِكَ هو قَولُه: كَيْلَ بَعِيرٍ.

والمعنى على ذلك: أنَّه كيلٌ يَسيرٌ على هذا الرجُلِ الذي نأتيه؛ لسَخائه، وحِرصِه على البذلِ، وممَّن قال بهذا المعنى: الزجَّاج، والواحدي، والخازن.

يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (119/3)، ((الوسيط)) للواحدي (621/2)، ((تفسير الخازن)) (540/2).

أو المعنى: كيلٌ يَسيرٌ: أي: سريعٌ لا حَبْسَ فيه، وقال به مقاتل، والمراد: أنَّه إذا جاء معنا عجَّلَ الملِكُ لنا الكيلَ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (343/2)، ((تفسير ابن الجوزي)) (455/2).

وقيل: المشارُ إليه هو ما جاؤوا به، والمعنى: ذلك الذي جِئْناك به كيلٌ يسيرٌ لا يكفينا، وممَّن اختاره: البغوي، والبيضاوي.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (502/2)، ((تفسير البيضاوي)) (169/3)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرسعني)) (376/3)، ((تفسير الزمخشري)) (486/2)، ((تفسير ابن الجوزي)) (455/2).

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ.

أي: قال يعقوبُ: لن أُرْسِلَ معكم أخاكم إلى مصرَ حتَّى تُعْطوني يمينًا وعهدًا مُؤَكَّدًا أنْ تردُّوه إليَّ، إلَّا أنْ تُغْلَبوا جميعُكم بأمرٍ لا قِبَلَ لكم به، فلا تقْدِروا على تخليصِ أخيكم وردِّه معكم.(84)

فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ.

أي: فلَمَّا أعْطى أولادُ يعقوبَ أباهم عُهودَهم على أنْ يردُّوا إليه أخاهم، قال يعقوبُ: اللَّهُ شهيدٌ علينا بالوفاءِ بما نقولُ جميعًا، أنا وأنتم تَكْفِينا شَهادتُه وحفْظُه.

(84) اختُلِف في المراد بقوله: ﴿إلا أن يحاط بكم﴾ على قولين: الأول: إلا أن تهلكوا جميعًا.
الثاني: أن تغلبوا حتى لا تطيقوا.
وذكر ابنُ عطية (٥/ ١١٧) أنّ قوله: ﴿إلا أن يحاط بكم﴾ لفظ عام لجميع وجوه الغلبة والقسْـر، والمعنى: تعمكم الغلبة من جميع الجهات حتى لا تكون لكم حيلة ولا وجْهُ تَخَلُّص.
ثم ساق القول الثاني الذي قاله قتادة، ورجَّحه مستندًا إلى لفظ الآية، فقال: «وهذا يُرَجِّحه لفظُ الآية».

سُورَةُ يُوسُفَ

الآيتان (67–68)

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (68)

تفسير الآيتين:

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67).

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ.

أي: وقال يعقوبُ لأبنائِه لَمَّا أرادوا الخروجَ إلى مصرَ: يا بَنِيَّ لا تدخُلوا مصرَ مِن بابٍ واحدٍ، وادخُلوا مِن أبوابٍ مُتعدِّدةٍ.

وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ.

أي: هذا الاحترازُ سبَبٌ لا يَرُدُّ قدَرَ اللَّهِ، فما أقْدِرُ أنْ أدفعَ عنكم بِوَصيَّتي هذه مِن قضاءِ اللَّهِ مِن شيءٍ؛ لأنَّ اللَّهَ إذا قدَّرَ شيئًا فلا بُدَّ مِن وُقوعِه، ولا ينفَعُ الحذَرُ مع القدَرِ.

إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ.

أي: ما الحُكمُ والقضاءُ إلَّا للَّهِ وحدَه؛ يحكُمُ في خلْقِه، ويقضي فيهم بما يشاءُ.

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ.

أي: على اللَّهِ وحدَه اعتمدتُ ووَثِقتُ، لا على ما وصَّيْتُكم به مِن دُخولِ مصرَ مِن أبوابٍ مُتفرِّقَةٍ، وعليه فلْيُفوِّضْ المُفَوِّضونَ أمورَهم.

وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (68).

وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ.

أي: ولَمَّا دخَلَ أولادُ يعقوبَ مصرَ مِن أبوابٍ مُتفرِّقَةٍ، كما أمَرَهم أبوهم، ما كان ينفعُهم دُخولُهم بتلك الصِّفةِ شيئًا ممَّا قضاهُ اللَّهُ عليهم.

إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا.

أي: لكِنْ أمَرَهم يعقوبُ بدُخولِ مصرَ مِن أبوابٍ مُتفرِّقَةٍ؛ لِحاجةٍ في نفْسِه أنفَذَها حين أمَرَهم بذلك، فلم يدَّخِرْ تلك النَّصيحةَ عنهم؛ لِيطمئنَّ قلْبُه بأنَّه لم يترُكْ شيئًا يظُنُّه نافعًا لهم إلَّا أبلَغَه إليهم؛ شفَقَةً منه، وحِرصًا على تنْبيهِهم للأخطارِ الَّتي قد تعرِضُ لهم، وتعْليمِهم الأخذَ بالأسبابِ مع التَّوكُّلِ على اللَّهِ.

وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ.

أي: وإنَّ يعقوبَ لصاحِبُ عِلْمٍ عظيمٍ؛ لِتعْليمِنا إيَّاه.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يعلمونَ ما يعلَمُه نَبِيُّنا يعقوبُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن أمْرِ الدِّينِ، وعواقِبِ الأُمورِ.(85)

(85) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (241/13)، ((تفسير البغوي)) (503/2)، ((تفسير القرطبي)) (229/9)، ((تفسير السعدي)) (ص: 402).

قال ابنُ عاشورٍ: (المعنى أنَّ اللهَ أمَرَ يعقوبَ عليه السَّلامُ بأخْذِ أسبابِ الاحتياطِ والنَّصيحةِ، مع علْمِه بأنَّ ذلك لا يُغني عنهم مِن اللهِ مِن شيءٍ قدَّرَه لهم؛ فإنَّ مُرادَ اللهِ تعالى خَفيٌّ عن النَّاسِ، وقد أمَرَ بسُلوكِ الأسبابِ المُعتادةِ، وعلِمَ يعقوبُ عليه السَّلامُ ذلك، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يعلمون تطلُّبَ الأمرينِ، فيُهمِلون أحدَهما؛ فمنهم مَن يُهمِلُ معرفةَ أنَّ الأسبابَ الظَّاهريَّةَ لا تدفَعُ أمرًا قدَّرَه اللهُ وعلِمَ أنَّه واقعٌ، ومنهم مَن يُهمِلُ الأسبابَ، وهو لا يعلَمُ أنَّ اللهَ أراد في بعضِ الأحوالِ عدَمَ تأثيرِها).

((تفسير ابن عاشور)) (25/13).

سُورةُ يُوسُفَ

الآيات (69–77)

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
(69) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ
لَسَارِقُونَ (70) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (71) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ
جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا
كُنَّا سَارِقِينَ (73) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (74) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ
فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (75)

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ
لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ
عَلِيمٌ (76)

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (77)

غريب الكلمات:

آوَى: أي: ضَمَّ، والمأْوى: المَكَانُ الَّذي يُرْجَعُ إليه ليلًا أو نهارًا، وأصْلُ (أوي): يدلُّ على تجمُّعٍ.

تَبْتَئِسْ: أي: تحزَنْ وتَغتمَّ؛ مِن البُؤسِ: وهو الضُّرُّ والشِّدَّةُ.

السِّقَايَةَ: أي: الصُّواعَ الذي كان يشربُ فيه الملِكُ، ويكيلُ به الطَّعامَ، وأصْلُ (سقي): يدلُّ على إشرابِ الشَّيءِ الماءَ، وما أشبَهَه.

الْعِيرُ: أي: الإبِلُ التي عليها الأحمالُ؛ سُمِّيت بذلك لأنَّها تَعيرُ، أي: تذهبُ وتجيءُ، وأصْلُ (عير): يدلُّ على مجيءٍ وذَهابٍ.

صُوَاعَ: الصُّواعُ: السِّقايَةُ، وكان يُسقَى بها المَلِكُ، ثم جُعِلَت صاعًا يُكالُ به.

زَعِيمٌ: أي: كَفيلٌ وضَمينٌ، وأصْلُ (زعم): يدلُّ على تكفُّلٍ بالشَّيءِ.

بِأَوْعِيَتِهِمْ: أي: برِحالِهم، وأصْلُ (وعي): يدلُّ على ضمِّ شيءٍ.

دِينِ الْمَلِكِ: أي: حُكمِه وقَضائِه، أو: سلطانِه، وأصلُ (دين): يدلُّ على الانقيادِ والذُّلِّ.

تَصِفُونَ: أي: تكذِبونَ وتقولونَ، والوصْفُ: ذِكْرُ الشَّيءِ بحِلْيتِه ونعْتِه، وأصْلُ (وصف): تحْلِيةُ الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيَ أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ

.(69)

وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ.

أي: ولَمَّا دخَلَ أولادُ يعقوبَ على يوسُفَ، ضمَّ يوسُفُ إليه أخاه الشَّقيقَ.

قَالَ إِنِّيَ أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ.

أي: قال يوسُفُ لأخيه مُخبِرًا بحقيقتِه: إنِّي أنا أخوك، فلا تحزَنْ بما كان إخوتُك يفعَلون بي وبك مِن قبْلُ.(86)

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ

.(70)

(86) ذكر ابنُ عطية (٥/ ١١٩) أنّ ﴿تبتئس﴾: تفتعل، مِن البؤس، أي: لا تحزن ولا تهْتَمَّ، ثم قال: «وهكذا عبَّر المفسرون».

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ.

أي: فلَمَّا أوفى يوسُفُ إخوتَه الطَّعامَ، وحمَّلَ لكلِّ واحدٍ منهم بعيرَه؛ جعَلَ الإناءَ- الَّذي يشرَبُ فيه الملِكُ ويُكالُ به الطَّعامُ- في مَتاعِ أخيه الشَّقيقِ.[87]

ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ.

أي: ثمَّ نادى منادٍ: يا أصحابَ القافِلَةِ المُحمَّلةِ بالطَّعامِ، إنَّكم لسارِقونَ.

قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (71).

أي: قال إخوةُ يوسفَ وقد أقبلوا على المُنادي ومَن معه: ما الَّذي ضاعَ منكم؟

قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ (72).

قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ.

أي: قال المُنادي ومَن معه: نفقِدُ الإناءَ الَّذي يشرَبُ فيه الملِكُ، ويكيلُ به الطَّعامَ.

---

(87) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (13/244، 246)، ((تفسير ابن كثير)) (4/400)، ((تفسير السعدي)) (ص: 402).

قال ابنُ عطيَّةَ: (والسِّقايَةُ: الإناءُ الَّذي به يشرَبُ الملِكُ، وبه كان يكيلُ الطَّعامَ للنَّاسِ، هكذا نصَّ جُمهورُ المُفسِّرينَ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسنُ، ومُجاهِدٌ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زيدٍ).

((تفسير ابن عطية)) (3/263).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (9/229).

وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ.

أي: ولِمَن جاء بصُواعِ المَلِكِ حِمْلُ بعيرٍ مِن الطَّعامِ.

وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ.

أي: قال المُنادي لإخوةِ يوسُفَ: وأنا بأنْ أُوفيَ مَن قامَ بذلك حِمْلَ بعيرٍ مِن الطَّعامِ، ضامِنٌ وكفيلٌ.

قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73).

أي: قال إخوةُ يوسُفَ: واللَّهِ لقد علِمْتم أنَّنا ما جئْنا لنعصِيَ اللَّهَ في أرضِكم، ولم نكُنْ سارِقِينَ مِن قبْلُ قطُّ، فليستِ السَّرِقةُ مِن خِصالِنا.

قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (74).

أي: قال المُنادي ومَن معه: فما عُقوبةُ سارِقِ الصُّواعِ إنْ كنتم كاذِبينَ في تَبْرِئةِ أنفُسِكم، ووجَدْنا الصُّواعَ في رِحالِكم؟

قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (75).

قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ: عُقوبةُ مَن وُجِدَ الصُّواعُ في مَتاعِه أنْ يكونَ هو نفْسُه رقيقًا لِصاحِبِ الصُّواعِ.

كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ.

أي: كذلك نُعاقِبُ الظَّالمينَ للنَّاسِ بسَرِقةِ أمْتعتِهم؛ أنْ يكونَ السَّارِقُ مِلْكًا لصاحِبِ المالِ المَسروقِ.

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76).

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ.

أي: فبدَأَ يوسُفُ بتفتيشِ أمتِعةِ إخوتِه قبلَ تفتيشِ مَتاعِ أخيه الشَّقيقِ، ثمَّ استخرَجَ الصُّواعَ مِن مَتاعِ شقيقِه؛ ليصِحَّ له بذلك إمساكُه عنده.(88)

كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ.

أي: مِثْلَ ذلك الكيدِ العجيبِ دبَّرنا ليوسفَ؛ ليتوصلَ إلى مقصودِه بألطفِ حيلةٍ؛ بأن ألهمناه أن يجعلَ السقايةَ في رحلِ أخيه؛ ليتوصَّلَ به إلى حبسِه.

---

(88) ذكر ابنُ عطية (٥/ ١٢٥) أنّ الضمير في قوله: ﴿استخرجها﴾ يحتمل احتمالين: الأول: أن يعود على السِّقاية.
الثاني.
أن يعود على السرقة.

مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ.

أي: ما كان يوسُفُ ليقْدِرَ على أنْ يأخُذَ أخاه الشَّقيقَ وَفقًا لشريعةِ ملِكِ مصرَ– فليس في حُكْمِه أنَّ مَن سَرَقَ يُسْتَرَقُّ– إلَّا بمشيئةِ اللهِ؛ فقد كادَ لِيوسُفَ، حتَّى تمكَّنَ مِن أخْذِ شقيقِه مِن إخوتِه، بناءً على شريعتِهم، وإقرارِهم بأنفُسِهم، فجعَلَ الحُكمَ منهم؛ ليتِمَّ له ما أرادَ.[89]

نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء.

أي: نرفَعُ مَن نشاءُ درجاتٍ بالعلْمِ النَّافِعِ، ومعرفةِ الطرقِ الموصلةِ إلى المقاصِدِ الحَسَنةِ، كما رفَعْنا يوسُفَ.

كما قال تعالى: يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ المجادلة: 11.

---

(89) اختُلِف في المراد بقوله: ﴿دين الملك﴾ على قولين: الأول: أنّ المعنى: في سلطان الملك.

الثاني: في حكمه وقضائه.

ورأى ابنُ جرير (١٣/ ٢٦٦) تقارب القولين، فقال: «وهذه الأقوال وإن اختلفت ألفاظ قائليها في معنى دين الملك فمُتقاربة المعاني؛ لأنّ مَن أخذه في سلطان الملك عامَلَه بعَمَله، فبرِيناه أخذه إذا لم يغيره، وذلك منه حكم عليه، وحكمه عليه قضاؤه، وأصل الدين: الطاعة».

وبنحوه قال ابنُ عطية (٥/ ١٢٣).

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ دَرَجَاتٍ بالتَّنوينِ، بمعنى: نرفَعُ مَن نشاءُ درجاتٍ في العِلْمِ على غيرِه، كما رفَعْنا يوسُفَ، فيكونُ في الآيةِ تقْديمٌ وتأْخيرٌ، كأنَّه قال: نرفَعُ مَن نشاءُ درجاتٍ.(90)

2- قِراءةُ دَرَجَاتِ بالإضافةِ بلا تنوينٍ، بمعنى: نرفَعُ درجاتِ مَن نشاءُ في الدُّنيا بالعِلْمِ، كما رفَعْنا منزِلةَ يوسُفَ، فيكونُ الرَّفعُ للدَّرجاتِ.(91)

وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ.

أي: وفوقَ كلِّ عالِمٍ مَن هو أعلَمُ منه، حتَّى ينتهِيَ العلْمُ إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ عالِمِ الغيبِ والشَّهادةِ.(92)

قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (77).

---

(90) قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخلفٌ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/260).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (13/262)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 144).
(91) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/260).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (13/262)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 258، 259).
(92) ذكر ابنُ عطية (٥/ ١٢٤) أن معنى قوله: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾: أنّ البشر في العلم درجات، فكل عالم فلا بد من أعلم منه؛ فإما مِن البشر، وإما الله – عز وجل –.
ثم قال: «وما ذكرناه من المعنى في قوله: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ هو قول الحسن وقتادة».
وبيَّنَ أنّ هناك فرقًا بين هذا القول وبين قول ابن عباس من طريق ابن جُبَيْر.

قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ بعدما استُخرِجَ الصُّواعُ مِن رَحْلِ أخيهم؛ تنصُّلًا مِن التَّشبُّهِ به، وتبْرِئةً لأنفُسِهم مِن هذه التُّهمةِ التي تُحرِجُهم: إنْ يسرِقْ هذا فليس بغريبٍ منه؛ فقد سرَقَ شقيقُه يوسُفُ مِن قبلُ.[93]

فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ.

أي: فأضمَرَ يوسُفُ في نفْسِه كَلِمةً، ولم يُظهِرها لهم.

وهذه الكلمةُ التي أسرَّها في نفْسِه، بعد أنْ وصَفَه إخوتُه بالسَّرقةِ كَذِبًا عليه؛ هي قولُه:

قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ.

(93) ذكر ابنُ عطية (٥/ ١٢٥) في الآية احتمالين، ووجّههما، فقال: «ويحتمل قولهم: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِن قَبْلُ﴾ تأويلين.

أحدهما: أنّهم حققوا السرقة في جانب بنيامين ويوسف؟، بحسب ظاهر الحكم، فكأنّهم قالوا: إن كان قد سرق فغيرُ بِدْعٍ مِن ابْنَيَ راحيل؛ لأنّ أخاه يوسف كان قد سرق.

فهذا من الإخوة إنْحاءٌ على ابْنَيْ راحيل: يوسف، وبنيامين.

والوجه الآخر الذي يحتمله لفظهم يتضمن أنّ السرقة في جانب يوسف وبنيامين مظنونة، كأنّهم قالوا: إن كان هذا الذي رُمِي به بنيامين حقًّا في نفسه فالذي رُمِي به يوسف قبل حقٌّ إذًا.

وكأنّ قصة يوسف والظن به قَوِيا عندهم أقوى مِمّا ظهر في جهة بنيامين».

ثم ذكر عن بعض المفسرين أن تقدير الكلام: «فقد قيل عن يوسف: إنه سرق».

وانتقده مستندًا للفظ الآية قائلًا: «ونحو هذا من الأقوال التي لا ينطبق معناها على لفظ الآية».

أي: قال: أنتم شرٌّ منزِلةً عند اللَّهِ ممَّن نسبْتُموه إلى السَّرقةِ؛ لِصنيعِكم الظَّالِمِ بي، وعُقوقِ أبيكم، ثمَّ بعد تلك المُدَّةِ الطَّويلةِ لم يَزُلِ الحِقْدُ عن قُلوبِكم، فرميتُموني بالسَّرقةِ.(94)

وَاللَّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ.

أي: واللَّهُ أعلَمُ بما تذكرونَ من الكَذِبِ.

(94) رجّح ابنُ عطية (٥/ ١٢٦ – ١٢٧) مستندًا إلى الدلالة العقلية أنّ قوله: ﴿أنتم شر مكانا﴾ قاله يوسف – عليه السلام – جهرًا لهم، فقال: «وقوله: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكانًا﴾ الآية، الظاهرُ منه أنّه قالها إفصاحًا، فكأنّه أسرَّ لهم كراهية مقالتهم، ثم تَجَهَّمهم بقوله: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكانًا﴾ أي: لسوء أفعالكم، والله يعلم إن كان ما وصفتموه حقًّا.

وفي اللفظ إشارة إلى تكذيبهم، ومما يُقَوّي هذا عندي أنّهم تركوا الشفاعة بأنفسهم، وعدلوا إلى الشفاعة بالشيخ – عليه السلام –».

ورجّح مستندًا إلى اللغة، والنظائر أنّ الذي أسره يوسف في نفسه هو: «الحزازة التي حدثت في نفس يوسف من قولهم، والكلام يتضمنها، وهذا كما تضمن الكلام الضمير الذي في قول حاتم:

لَعَمْرُك ما يُغْني الثراء عن الفتى …

إذا حَشْرَجَتْ يومًا وضاق بها الصَّدْرُ

وهذا كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِن بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠]، فهي مراد بها الحالة المُتَحَصِّلة من هذه الأفعال».

ثم ذكر قولين آخرين، فقال:» وقال قوم: أَسَرَّ المجازاة.

وقال قوم: أَسَرَّ الحُجَّة «.

ثم قال:» وما قدَّمناه أليق».

سُورةُ يُوسُفَ

الآيات (78–80)

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78)
قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (79) فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا
مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا
فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ
(80)

غريب الكلمات:

مَعَاذَ اللَّهِ: أي: أعوذُ وأستجيرُ باللَّهِ، وأصْلُ (عوذ): الْتِجاءٌ إلى الشَّيءِ.

اسْتَيْأَسُوا: أي: يَئِسوا؛ من اليأْسِ: وهو القُنوطُ، وأصلُ (يئس): يدلُّ على قطْعِ الرَّجاءِ.

خَلَصُوا نَجِيًّا: أي: اعتَزَلوا النَّاسَ، وانفرَدوا يتَناجَون ويتَشاورون ويَتَسارُّون، وأصْلُ (خلص): يدلُّ على تنقيةِ الشَّيءِ وتهذيبِه، وأصْلُ (نجو): يدلُّ على سَترٍ وإخفاءٍ.

أَبْرَحَ: أي: أخرُجَ وأفارِقَ، وأصْلُ (برح): زوالٌ، وبُروزٌ، وانكشافٌ.

تفسير الآيات:

قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78).

قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ لِيوسُفَ: يا أيُّها العزيزُ إنَّ لأخينا الَّذي تُريدُ أخْذَه أبًا شيخًا كبيرًا، يحِبُّه حُبًّا شديدًا، ولا يصبِرُ على فِراقِه.

فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ.

أي: فخُذْ واحدًا منَّا بدلًا مِن أخينا الَّذي تُريدُ أخْذَه؛ إنَّا نَراكَ مِنَ المحسِنينَ في أفعالِك، فأحْسِنْ إلينا وإلى أبينا بأخْذِ أحدِنا، وترْكِ أخينا يرجِعُ إلى أبيه.[95]

قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ (79).

---

(95) ذكر ابنُ عطية (٥/ ١٢٨) في قوله: ﴿فخذ أحدنا مكانه﴾ احتمالين: أحدهما: «أن يكون مجازًا، وهم يعلمون أنّه لا يصح أخذُ حُرٍّ لِيُسْتَرَقَّ بدلَ مَن أحكمت السنة رقه، وإنما هذا كما تقول لمن تكره فعله: اقتلني ولا تفعل كذا وكذا.

وأنت لا تريد أن يقتلك، ولكنك تبالغ في اسْتِنزاله، وعلى هذا يتجه قول يوسف: ﴿مَعاذَ اللَّهِ﴾؛ لأنّه تَعَوُّذ مِن غير جائز».

والآخر: «أن يكون قولهم: ﴿فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ﴾ حقيقة، وبعيد عليهم –وهم أنبياء– أن يريدوا اســـترقاق حُرٍّ، فلم يبق إلا أن يريدوا بذلك طريق الحمالة، أي: خذ أحدنا حتى ينصرف إليك صاحبك».

وكذا ذكر في قوله: ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ احتمالين، فقال: «وقولهم: ﴿إِنّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يحتمل أن يريدوا وصفَه بما رأوه من إحسانه في جميع أفعاله معهم ومع غيرهم.

ويحتمل أن يريدوا: إنّا نرى لك إحسانًا علينا في هذه اليد إن أسديتها إلينا.

وهذا تأويل ابن إسحاق».

أي: قال يوسُفُ لإخوتِه: نعوذُ باللَّهِ أنْ نأخُذَ بريئًا بدلًا ممَّن وجَدْنا الصُّواعَ لديه؛ إنَّا إذًا أخَذْنا غيرَه لظالِمونَ بوضْعِنا العُقوبةَ على مَن لا يستحِقُّها.

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (80).

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا.

أي: فلَمَّا يئِسَ إخوةُ يوسُفَ مِن أنْ يُخَلِّيَ يوسُفُ سَراحَ أخيهم، ويأْخُذَ واحدًا منهم مكانَه، انفَرَدوا عنِ النَّاسِ، واجتمَعوا يتسارُّونَ فيما بينهم، ويتَشاوَرونَ في شأْنِ ما وقَعوا فيه.

قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللّهِ.

أي: قال أكبَرُ أولادِ يعقوبَ سِنًّا لإخوتِه: ألَمْ تعلَموا أنَّ أباكم يعقوبَ قد أخَذَ عليكم عُهودَ اللَّهِ المُؤَكَّدةَ بأنْ ترُدُّوا إليه ولَدَه؟![96]

(96) اختُلِف في المعنيّ بقوله: ﴿كبيرهم﴾ على أقوال: الأول: أنّ ذلك عُنِي به كبيرُهم في العقل والعلم، لا في السن، وهو شمعون في بعض الأقوال، ويهوذا في بعضها، ولاوي في بعضها الآخر.
الثاني: أنّ ذلك عني به كبيرهم في السّنّ، وهو روبيل.

وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ.

أي: ألَمْ تعلَموا أيضًا تَفريطَكم في يوسُفَ وإضاعتَه مِن قَبْلِ هذا؟! فاجتمَعَ عليكمُ الأمْرانِ؛ تفريطُكم في يوسُفَ، وعدَمُ إتيانِكم بأخيه.

فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي.

أي: فلنْ أُفارِقَ أرضَ مصرَ حتَّى يأْذَنَ لي أبي بالخُروجِ منها؛ فإنِّي أَسْتَحيي منه، أو يقْضِيَ اللَّهُ لي بأمْرٍ.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٣/ ٢٨٥) مستندًا إلى إجماع أهل التاريخ، وإلى اللغة القول الثاني، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصحة قولُ مَن قال: عنى بقوله: ﴿قال كبيرهم﴾: روبيل؛ لإجماع جميعهم على أنّه كان أكبرهم سنًّا، ولا تفهم العرب في المخاطبة إذا قيل لهم: فلان كبير القوم.

مطلقًا بغيرِ وصلٍ إلا أحد معنيين؛ إمّا في الرياسة عليهم والسؤدد، وإمّا في السن، فأمّا في العقل فإنهم إذا أرادوا ذلك وصلوه، فقالوا: هو كبيرهم في العقل.

فأمّا إذا أطلق بغير صلته بذلك فلا يفهم إلا ما ذكرت.

وقد قال أهل التأويل: لم يكن لشمعون -وإن كان قد كان مِن العلم والعقل بالمكان الذي جعله الله به- على إخوته رياسة وسُؤْدَد؛ فيُعْلَم بذلك أنه عُنِي بقوله: ﴿قال كبيرهم﴾.

فإذا كان ذلك كذلك فلم يبق إلا الوجه الآخر، وهو الكبر في السِّن، وقد قال الذين ذكرنا جميعًا: روبيل كان أكبر القوم سنًّا، فصحَّ بذلك القول الذي اخترناه».

ووافقه ابنُ عطية (٥/ ١٣٠) بقوله: «وهذا أظهر».

وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ.

أي: واللَّهُ أفضَلُ وأعدَلُ مَن حكَمَ بين النَّاسِ بالحقِّ.

سُورةُ يُوسُفَ

الآيات (81– 87)

ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (81) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (82) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (85) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (86) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (87)

غريب الكلمات:

أَسَفَى: الأسف: أشدُّ الحسرة، والحزنُ على ما فات، وأصل (أسف): يدلُّ على الفَوتِ والتلهُّفِ وما أشبَهَ ذلك.

كَظِيمٌ: أي: مُمسِكٌ على حُزنِه، لا يُظهِرُه ولا يَشكوه، وأصلُ (كظم): يدلُّ على إمساكِ الشَّيءِ، وجَمعِه.

تَفْتَأُ: أي: لا تزالُ.

حَرَضًا: أي: مريضًا مُشْفيًا على الهلاكِ، وأصلُ (حرض): يدلُّ على الذَّهابِ والتَّلفِ والهلاكِ.

بَثِّي: أي: همِّي، وقيل: البثُّ: الهمُّ الشديدُ، وقيل: أشدُّ الحزنِ، وسُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ صاحبَه لا يصبِرُ عليه حتَّى يَبُثَّه، أي: يَشكوَه ويَنشُرَه، وأصلُ (بثَّ): يدلُّ على تفريقِ الشَّيءِ وإظهارِه.

فَتَحَسَّسُوا: التَّحسُّسُ: شِدَّةُ التطَلُّبِ والتَّعرُّفِ؛ مِن الحِسِّ: وهو الإدراكُ بالحاسَّةِ.

رَوْحِ اللَّهِ: أي: فرَجِه ورحمتِه، وأصلُ (روح): يدلُّ على سَعَةٍ وفُسحةٍ.

تفسير الآيات:

ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (81).

ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ.

أي: قال أكبرُ أولادِ يَعقوبَ لإخوته: ارجِعوا إلى أبيكم يَعقوبَ، فقولوا له: يا أبانا، إنَّ ابنَك الَّذي أرسلْتَه معنا سرَقَ صُواعَ الملِكِ، وأُخِذَ بجِنايتِه.

وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا.

أي: وما شَهِدْنا عِندَكَ- يا أبانا- بأنَّ ابنَك سرَقَ إلَّا بما رأيْنا؛ مِنِ استخراجِ الصُّواعِ مِن رَحْلِه.

وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ.

أي: وما كنَّا لِمَا غاب عنَّا عالِمينَ؛ فلم نَدْرِ أنَّ ابنَك سيَسرِقُ الصُّواعَ، ويُسْتَرَقُّ عند الملِكِ.(97)

---

(97) القائل: ﴿ارجعوا إلى أبيكم﴾ هو كبيرهم.
وقد ذكر ذلك ابنُ عطية (٥/ ١٣١ بتصرف)، ورجّحه بقوله: «وهو الأظهر».
وذكر قولًا آخر أنّ قائل ذلك هو يوسف - عليه السلام -.
اختُلِف في قوله: ﴿وما شهدنا إلا بما علمنا﴾ على قولين: الأول: أنّ معناه: وما قلنا: إنّه سرق إلّا بظاهر علمنا حين رأينا صواعَ الملك في وعائه.
الثاني: أنّ معناه: وما شهدنا عند يوسف بأنّ السارق يؤخذ بسرقته إلا بما علمنا.

وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (82).

وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا.

أي: وقولوا لأبيكم: وإنْ كنْتَ لا تُصَدِّقُنا فيما أخبرْناك به مِن سَرِقةِ ابنِك للصُّواعِ، فاسألْ أهلَ مِصْرَ الَّتي كنَّا فيها؛ ليَتبيَّنَ لك صِدْقُنا.

وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا.

أي: واسألْ أصحابَ القافِلةِ الَّتي جِئْنا معها ورافَقْناها؛ فسيُصَدِّقوننا فيما أخبرْناكَ.

وَإِنَّا لَصَادِقُونَ.

أي: وإنَّا لصادِقونَ فيما أخْبَرناكَ به مِن سَرِقةِ ابنِك صُواعَ المِلكِ، واسترقاقِه بسَبَبِ سرِقَتِه، ولم نَكذِبْ عليك.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٣/ ٢٩٠) مستندًا إلى السياق القول الأول، وعلَّل ذلك بقوله: «لأنّه عقيب قوله: ﴿إن ابنك سرق﴾، فهو بأن يكون خبرًا عن شهادتهم بذلك أولى مِن أن يكون خبرًا عما هو منفصل».

وبيّن ابنُ عطية (٥/ ١٣١ – ١٣٢) أنّ قوله: ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ على القول الأول معناه: والعلم في الغيب إلى الله، ليس ذلك في حفظنا.

وعلى الثاني معناه: وما كُنّا للغيب حافظين أنّ السرقة تخرج مِن رَحل أحدنا.

ثم قال عقب ذكره الخلاف: «ويحتمل قوله: ﴿وما كُنّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ﴾ أي: حين واثقناك، إنّما قصدنا ألا يقع مِنّا نحن في جهته شيء يكرهه، ولم نعلم الغيب في أنّه سيأتي هو بما يوجب رِقَّه عندك إلا بما علمناه مِن ظاهر حاله، وما كنا بالليل حافظين لما يقع مِن سرقته هو، أو التدليس عليه».

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83).

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا.

أي: قال يَعقوبُ لأبنائِه: ليس الأمرُ كما ادَّعيْتُم، بل زَيَّنَتْ لكم أنفُسُكم أمْرًا أردْتُموه بأخيكم غيرَ ما تقولون.

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا.

أي: قال يَعقوبُ عليه السَّلامُ لهم: فصَبْري على فَقْدِ أبنائي صَبرٌ جميلٌ، لا جَزَعَ فيه، ولا شَكوَى إلى الخلْقِ؛ عسى اللَّهُ أنْ يَرُدَّ عليَّ أبنائي الغائبينَ جميعًا: يوسُفَ وأخويه.

إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.

أي: إنَّ اللَّهَ هو العَليمُ بحالي، الحَكيمُ في أفعالِه وقَضائِه وتَدبيرِ خَلْقِه.

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84).

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ.

أي: وأعرَضَ يَعقوبُ عليه السَّلامُ عن أبنائِه بعدَ أنْ أخبَرَوه بما جدَّدَ حُزنَه القديمَ، وقال: يا شِدَّةَ حُزْني على وَلدِي يوسُفَ!

وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ.

أي: وابيضَّتْ عَيْنَا يَعقوبَ عليه السَّلامُ مِن شدَّةِ الحُزنِ الَّذي أوْجَبَ له كثرَةَ البُكاءِ؛ فقلبُه مملوءٌ مِن الحُزنِ، وهو كاتمٌ له لا يُظهِرُه.(98)

قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (85).

قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ.

أي: قال أبناءُ يَعقوبَ لأبيهم مُتعجِّبينَ مِن حالِه: واللَّهِ، لا تَزالُ تَذْكُرُ يوسُفَ ولا تنساه!

حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا.

---

(98) ذكر ابنُ عطية (٥/ ١٣٤) في قوله: ﴿كظيم﴾ احتمالين: الأول: أن يكون بمعنى: كاظم، كقوله: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وعلّق عليه قائلًا: «ووصف يعقوب بذلك لأنّه لم يَشْكُ إلى أحد، وإنما كان يكمد في نفسه، ويُمْسِك همَّه في صدره، وكان يكظمه –أي: يرده– إلى قلبه، ولا يرسله بالشكوى والغضب والضجر».

الثاني: أن يكون بمعنى: مكظوم.

وعلّق عليه قائلًا: «وقد وصف الله تعالى يونس – عليه السلام – بمكظوم في قوله: ﴿إذ نادى وهو مكظوم﴾ [القلم: ٤٨]، وهذا إنّما يَتّجه على تقدير أنّه مليء بحزنه، فكأنّه كظم بثه في صدره».

ثم رجّح الأول بقوله: "وجَرْيُ كظيم على باب كاظم أبين».

ولم يذكر مستندًا.

ثم ذكر قول مَن قال من السلف معناه: مكروب.

ومَن قال: معناه: مكمود.

وعلّق بقوله: «وذلك كله متقارب».

أي: لا تزالُ تَذكُرُ يوسُفَ دائمًا، حتَّى يَضْعُفَ جِسمُك وعقلُك، وتقارِبَ الهلاكَ مِن شدَّةِ الحُزنِ عليه![99]

أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ.

أي: أو تكونَ ممَّن هلَكَ بالموتِ!

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (86).

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ.

أي: قال يعقوبُ رادًّا على أَبنائِه: إنَّما أشْكو همِّي وحُزْني إلى اللهِ وحْدَه، لا إلى خَلْقِه.

---

(99) بيّن ابنُ عطية (٥/ ١٣٦ – ١٣٧ بتصرف) أنّ ﴿حرضا﴾ معناه: «الذي قد نهكه الهرم، أو الحب، أو الحزن إلى حال فساد الأعضاء والبدن والحس».

وذكر أنّ ذلك يوافق قراءة الجمهور ﴿حرضا﴾ بفتح الراء والحاء، ثم ذكر عدة قراءات أخرى، وعلّق عليها، فقال: «وقرأ الحسن بن أبي الحسن بضمهما، وقرأت فرقة: (حُرْضًا) بضم الحاء وسكون الراء.

وهذا كله المصدر يوصف به المذكر والمؤنث والمفرد والجمع بلفظ واحد، كعدل وعدو، وقيل في قراءة الحسن: إنه يراد: فتات الأشنان، أي: باليًا متعتتًا، ويقال مِن هذا المعنى الذي هو شن الهم والهرم: رجل حارض».

ثم قال: «والحرض بالجملة: الذي فسد ودنا موتُه».

وذكر آثار السلف في هذا المعنى، ثم علّق قائلًا: «فكأنهم قالوا على جهة التعنيف له: أنت لا تزال تذكر يوسف إلى حال القرب مِن الهلاك، أو إلى الهلاك».

وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ.

أي: وأعلَمُ مِن عِندِ اللَّهِ عِلْمًا عَلَّمَنِيه لا تَعلمونَه أنتم.[100]

يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (87).

يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ.

أي: قال يَعقوبُ عليه السَّلامُ لأبنائِه: يا بَنِيَّ، اذْهَبوا إلى مِصْرَ، فاجتَهِدوا في الْتِماسِ يوسُفَ وأخيه، وتَعرَّفوا خبرَهما.

وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ.

أي: ولا تَقنَطُوا مِن فرَجِ اللَّهِ ورَحمتِه؛ وأنَّه سيرَوِّحُ عنَّا ما نحن فيه مِن الكَرْبِ والشِّدَّةِ.

---

(100) ذكر ابنُ عطية (٨/ ١٣٨) في معنى الآية احتمالين، فقال: «وقوله: ﴿أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ يحتمل أنه أشار إلى حُسن ظنه بالله وجميل عادة الله عنده، ويحتمل أنّه أشار إلى الرؤيا المنتظرة، أو إلى ما وقع في نفسه عن قول ملك مصر: إني أدعو له برؤية ابنه قبل الموت.
وهذا هو حُسْنُ الظَّنِّ».

إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ.

أي: إنَّه لا يَقنَطُ مِن فَرَجِ اللَّهِ، ويقطَعُ رَجاءَه من رَحمَتِه إلَّا القومُ الَّذين يَجْحَدون قُدرتَه، ويَستبعِدُون رَحمتَه.

سُورةُ يُوسُفَ

الآيات (88- 93)

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا
الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ
وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (89) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ
اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ
اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ (92) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ
(93)

غريب الكلمات:

مَسَّنَا: أي: أصابَنا، والمسُّ يقال في كلِّ ما يَنالُ الإنسانَ مِن أذًى، وأصلُ (مسس): يدلُّ على جَسِّ الشَّيْءِ باليَدِ.

مُزْجَاةٍ: أي: قليلةٍ رَديئةٍ، ومَردودةٍ مَدفوعةٍ غيرِ مقبولةٍ؛ مِن الإزجاءِ: وهو الطَّردُ والسَّوقُ والدَّفعُ، وأصلُ (زجي): يدلُّ على الرَّمي بالشَّيْءِ.

آثَرَكَ: أي: فَضَّلَكَ، وأَصْلُ (أَثَرَ): تَقديمُ الشَّيْءِ.

تَثْرِيبَ: أي: تَعْيِيرَ وتَوْبيخَ وتأنيبَ، وأصلُ التَّثْرِيب: يدلُّ على اللَّومِ، والأخذِ على الذَّنبِ.

تفسير الآيات:

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88).

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ.

أي: فرجَعَ إخوةُ يوسُفَ إلى مِصْرَ، فلَمَّا دخلوا على يوسُفَ قالوا له: يا أيُّها العزيزُ، أصابَنا وأهْلَنا الجوعُ والحاجةُ والشِّدَّةُ؛ بسببِ القحْطِ، وقِلَّةِ الطَّعامِ.

وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ.

أي: وأَتَيْنا بثَمنٍ رَديءٍ قليلٍ لِشراءِ الطَّعامِ.(101)

فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ.

أي: فأَوْفِنا كَيْلَ الطَّعامِ ولا تَنْقُصْه.

---

(101) قال ابنُ جرير (١٣/ ٣١٦ بتصرف): «وعنى بقوله: ﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾: بدراهم أو ثمن لا يجوز في ثمن الطعام، إلا لمن يتجاوز فيها، وأصل الإزجاء: السَّوْق بالدَّفع.
وقد اختلف أهل التأويل في البيان عن تأويل ذلك، وإن كانت معاني بيانهم متقاربة».
وذكر أقوال السلف على ذلك.
وذكر ابنُ عطية (٥/ ١٤٢) إضافةً لِما ورد في أقوال السلف في معنى الآية قولًا منسوبًا للإمام مالك أنّه قال: المزجاة: الجائزة.
ثم علّق قائلًا: «ولا أعرف لهذا وجهًا، والمعنى يأباه، ويحتمل أن صُحِّف على مالك، وأنّ لفظه بالحاء غير منقوطة وبالراء».

وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ.

أي: وتفضَّلْ علينا، وتَسامَحْ بما بيْنَ الثَّمَنِ الجيِّدِ للطَّعامِ والثَّمنِ الرَّديءِ الَّذي قدَّمْناه لشِرائِه، ولا تَنْقُصْنا مِنَ الطَّعامِ بسَببِ ذلك.(102)

إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ.

أي: إنَّ اللَّهَ يُثيبُ في الدُّنيا والآخِرَةِ المُتفضِّلين بأموالِهم على المُحتاجِينَ.

قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (89).

أي: قال يوسُفُ لإخْوتِه: هل تَذكُرونَ ما فعلْتُم بيوسُفَ وأخيه مِنَ الأذَى، حالَ جَهْلِكم بمِقدارِ ما ارتَكبتُموه، وعاقبةِ ما فعلْتُموه؟

---

(102) في قوله: ﴿وتصدق علينا﴾ قولان: الأول: تفضَّل علينا بما بين الجياد والرديئة.
الثاني: تصدَّق علينا بردِّ أخينا إلينا.
وهو قول ابن جريج والضحاك.
وقد رجّح ابنُ جرير (١٣/ ٣٢٦) القول الأول، وانتقد الثاني مستندًا إلى اللغة، فقال: «وهذا القول الذي ذكرناه عن ابن جريج، وإن كان قولًا له وجه، فليس بالقول المختار في تأويل قوله: ﴿وتصدق علينا﴾؛ لأنّ الصدقة في المتعارف: إنما هي إعطاء الرجل ذا الحاجة بعضَ أملاكه ابتغاء ثواب الله عليه، وإن كان كل معروف صدقة، فتوجيه تأويل كلام الله إلى الأغلب مِن معناه في كلام من نزل القرآن بلسانه أولى وأحرى».
وذكر ابنُ عطية (٥/ ١٤٢ - ١٤٣) قولًا آخر ووجَّهه، فقال: «وقالت فرقة: كانت الصدقة عليهم محرمة، ولكن قالوا هذا تَجَوُّزًا واستعطافًا منهم في المبايعة، كما تقول لمن تساومه في سلعة: هبني مِن ثمنها كذا، وخذ كذا.
فلم تقصد أن يهبك، وإنما حسنت له الانفعال حتى يرجع معك إلى سومك».

قَالُواْ أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90).

قَالُواْ أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ له: أإنَّك لَأَنْتَ أخونا يوسُفُ؟

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: أَإِنَّكَ قِراءتانِ:

1- قِراءةُ إِنَّكَ على لفظِ الخَبَرِ، بمعنى: أنَّهم لَمَّا عرَفوا يوسُفَ وتيَقَّنوا أنَّه هو، أَتَوْا بـ (إنَّ)؛ لِتأكيدِ ذلك.

2- قِراءةُ أَإِنَّكَ على لفظِ الاستفهامِ؛ قيل: بمعنى أنَّهم ظَنُّوا ذلك ظنًّا فاسْتَفْهَموه، أَهُوَ هُوَ؟ وقيل: هي بمعنَى القِراءةِ الأُولَى، أي: أثْبَتوا أنَّه يوسُفُ لا أنَّهم اسْتَخْبَروا عن أمْرٍ جَهِلوه، وإنَّما جاؤوا بلفظِ الاستفهامِ؛ لِتحقيقِ ما ثبَتَ لديْهِم.

قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا.

أي: قال يوسُفُ لإخوتِه: نَعَمْ أنا يوسُفُ، وهذا أخي الشَّقِيقُ، قد مَنَّ اللَّهُ علَيْنا بالاجتِماعِ بعدَ الفُرْقَةِ، والعِزَّةِ بعدَ الذِّلَّة، والتَّمْكينِ في الدُّنيا.

إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ.

أي: إنَّه مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ، فيَمتَثِلْ ما أَمَرَ به، ويَجْتَنِبْ ما نَهَى عنه، ويَصْبِرْ على الطَّاعاتِ وعنِ المعاصي وعلى المصائِبِ؛ فإنَّ اللَّهَ لا يُبْطِلُ ثوابَ إحسانِه، ولا ثَوابَ كُلِّ مَن أحسَنَ بذلك.

قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91).

قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ مُقْسِمينَ له: تَاللَّهِ، لقد فضَّلَك اللَّهُ علينا بالعِلْمِ والحِلْمِ، وحُسْنِ الخِلْقَةِ والخُلُقِ، والمُلْكِ.

وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ.

أي: وما كُنَّا فيما فعَلْنا بكَ إلَّا مُذْنِبينَ مُخْطِئِينَ في حقِّكَ.

قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92).

قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ.

أي: قال يوسُفُ لإخوتِه: لا تَعْيِيرَ عليكم،(103) ولا تَوْبِيخَ بما صَنَعْتُم، ولا إفسادَ لِمَا بَيْننا مِنَ الأُخوَّةِ بعدَ اليوم.

يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

أي: دعا يوسُفُ لإخوتِه فقال: يَسْتُرُ اللَّهُ لكم ذُنوبَكم، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذَتِكم بها، وهو أرحمُ الرَّاحِمين لِمَنْ تاب إليه، وأنابَ إلى طاعتِه.

اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93).

اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا.

أي: قال يوسُفُ لإخوتِه: اذْهَبوا بقَميصي هذا(104) فأَلْقُوهُ على وجْهِ أبي يعقوب، يَصِرْ مُبْصِرًا بَعدَ العَمَى.

---

(103) قال ابنُ عطية (٥/ ١٤٦): «وقد عبَّر بعض الناس عن التثريب بالتعيير، ومنه قول النبي – عليه السلام –: «إذا زَنَت أمةُ أحدكم فليجلدها، ولا يُثَرِّب»، أي: لا يُعَيِّر».

(104) ذكر ابنُ عطية (٥/ ١٤٧) في صفة القميص، وانتقده مستندًا إلى الدلالة العقلية، فقال: «وروي أن هذا القميص كان لإبراهيم، كساه الله إيّاه حين خرج من النار، وكان من ثياب الجنة، وكان بعد لإسحاق، ثم ليعقوب، ثم كان دفعه ليوسف، فكان عنده في حفاظ من قصب.

وهذا كله يحتاج إلى سند، والظاهر أنّه قميص يوسف الذي هو منه بمنزلة قميص كل أحد، وهكذا تبين الغرابة في أن وجد ريحه من بعد، ولو كان من قمص الجنة لما كان في ذلك غرابة، ولوجده كلُّ أحَد».

وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ.

أي: وجِيئُوني بجَميعِ أهْلِكم بَنِي يعقوبَ.

سُورةُ يُوسُفَ

الآيات (94– 98)

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (96) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98)

غريب الكلمات:

فَصَلَتِ: أي: خرجَتْ وفارَقَتْ؛ مِن قَولِهم: فصل من البلدِ فُصولًا: إذا انفصل منه، وجاوزَ حِيطانَه، وأصلُ (فصل): يدلُّ على تمييزِ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، وإبانتِه عنه.

تُفَنِّدُونِ: أي: تُسَفِّهوني، وتَنسُبوني إلى الفَنَدِ: وهو الخَرَفُ، وضَعْفُ الرَّأْيِ والعَقلِ مِن كِبَرِ السِّنّ، وأصلُ (فند): يدلُّ على ثِقَلٍ وشِدَّةٍ.

تفسير الآيات:

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ (94).

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ.

أي: ولَمَّا خرجَتْ قافلةُ بَنِي يعقوبَ مِن مصرَ إلى الشَّامِ، قال يعقوبُ عليه السَّلامُ لِمَنْ حضرَ عِندَه: إِنِّي لَأَشَمُّ رائحةَ ابْنِي يوسُفَ!

لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ.

أي: لولا أنْ تَنْسُبوني إلى الهَرَمِ وضَعْفِ العَقلِ والخَرَفِ، لَتَحَقَّقْتُم ذلك وصَدَّقْتُمُوني.[105]

---

(105) اختُلِف في قوله تعالى: ﴿لولا أن تفندون﴾ على أقوال: الأول: تسفهون.

الثاني: تكذبون.

الثالث: تهرمون.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٣/ ٣٣٦ – ٢٤١ بتصرف) العموم، فقال: «وأمّا قوله: ﴿لولا أن تفندون﴾ فإنه يعني: لولا أن تعنفوني، وتعجزوني، وتلوموني، وتكذبوني، ومنه قول الشاعر:

يا صاحبي دعا لومي وتفنيدي فليس ما فات من أمري بمردود

ويقال: أفند فلانًا الدهر، وذلك إذا أفسده «.

ثم ذكر اختلاف السلف في هذا، ثم قال مستندًا إلى اللغة:» وقد بَيّنّا أنّ أصل التفنيد: الإفساد، وإذا كان ذلك كذلك فالضعف والهرم والكذب وذهاب العقل وكل معاني الإفساد تدخل في التفنيد؛ لأنّ أصل ذلك كله الفساد، والفساد في الجسم: الهرم وذهاب العقل، والضعف، وفي الفعل الكذب، واللوم بالباطل،

ولذلك قال جرير بن عطية:

يا عاذلِي دعا الملام وأَقْصِرا طال الهوى وأَطَلْتُما التَّفْنِيدا

قَالُواْ تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ (95).

أي: قال الحاضِرونَ ليعقوبَ: واللهِ، إنَّك لفي خَطئِك الَّذي كنتَ عليه قديمًا، قد ذهبتَ عن العلمِ بحقيقةِ أمرِ يوسفَ، ومِن أجلِ ذلك تطمعُ في رجوعِه إليك.(106)

فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (96).

يعني: الملامة، فقد تبين إذ كان الأمرُ على ما وصفنا أنّ الأقوال التي قالها مَن ذكرنا قوله في قوله: ﴿لولا أن تفندون﴾ على اختلاف عباراتهم عن تأويله متقاربة المعاني، محتمل جميعها ظاهر التنزيل، إذ لم يكن في الآية دليل على أنه معني به بعض ذلك دون بعض».

وبنحوه رجح ابنُ عطية (٥/ ١٤٨ – ١٤٩)، وأضاف: «والتفنيد يقع إما لجهل المُفَنَّد، وإما لِهَوًى غلبه، وإما لكذبه، وإما لضعفه وعجزه لذهاب عقله وهرمه، فلهذا فسّر الناس التفنيد في هذه الآية بهذه المعاني، ومنه قوله – عليه السلام –: «أو هرمًا مفندًا»».

ثم ذكر أقوال السلف، ثم قال: «والذي يشبه أن تفنيدهم ليعقوب إنما كان لأنهم كانوا يعتقدون أن هواه قد غلبه في جانب يوسف».

(106) بيّن ابنُ عطية (٥/ ١٤٩) أنّ الضلال في الآية يُراد به: «الانتكاف والتحير، وليس هو بالضلال الذي هو في العرف ضد الرشاد؛ لأنّ ذلك مِن الجفاء الذي لا يسوغ لهم مواجهته به».

ثم بيّن أن قتادة وابن عباس تأولاه على معنى الضلال الذي هو ضد الرشاد الذي ردَّه، فقال: «وقد تأول بعض الناس على ذلك، ولهذا قال قتادة؟: قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله – عليه السلام –.

وقال ابن عباس: المعنى: لفي خطئك».

فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا.

أي: فلَمَّا أنْ جاءَ يَعقوبَ ولَدُه المبَشِّرُ بِرسالةِ يوسُفَ، أَلْقَى قَميصَ يوسُفَ على وجهِ يعقوبَ، فعاد مُبْصِرًا بعَينيهِ كما كان!

قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ.

أي: قال يعقوبُ لأولادِه: ألم أقُلْ لكم: إنِّي أعلَمُ مِنْ اللَّهِ أنَّه سيَرُدُّ عليَّ يوسُفَ، ويَجمَعُ بيني وبينَه.(107)

قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97).

أي: قال إخوةُ يوسُفَ لأبيهم: يا أبانا، اسأَلِ اللَّهَ أنْ يَستُرَ علينا ذُنوبَنا الَّتي أذْنَبْناها في حقِّك وحقِّ يوسُفَ، ويَتجاوزَ عن مُؤاخَذتِنا بها؛ إنَّا كُنَّا مُذْنِبينَ مُتعَمِّدين للإثمِ بما فعَلْنا.

---

(107) ذكر ابنُ عطية (٥/ ١٥٠) في قوله: ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ احتمالين، فقال: «قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهذا –والله أعلم– هو انتظاره لتأويل الرؤيا، ويحتمل أن يشير إلى حسن ظنه بالله تعالى فقط».

قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98).

أي: قال يَعقوبُ لهم: سوفَ أسأَلُ ربِّي أنْ يَغفِرَ ذُنوبَكم؛[108] إنَّ ربِّي هو السَّاتِرُ لِذُنوبِ التَّائِبين المُتجاوِزُ عن المُؤاخَذةِ بها، الرَّحيمُ بهم؛ فلا يُعَذِّبُهم بعدَ تَوْبَتِهم.

(108) ذكر ابنُ عطية (٥/ ١٥٠ - ١٥١) أنّ يعقوب أخّر استغفاره لبنيه إلى السحر، ثم علّق بقوله: «ويقوي هذا التأويل قول النبي - ﷺ -: «ينزل ربنا كل ليلة إذا كان الثلث الآخر إلى سماء الدنيا، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يستغفرني فأغفر له؟» الحديث.

ويقويه قوله تعالى: ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ [آل عمران: ١٧]».

سُورَةُ يُوسُفَ

الآيات (99– 101)

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ **(99)** وَرَفَعَ
أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي
حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ
بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ **(100)** رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ
الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ **(101)**

غريب الكلمات:

الْعَرْشِ: أي: سريرِ الملِكِ، أو سريرِ المملَكةِ، وأصلُ (عرش): يدلُّ على ارتفاعٍ في شيءٍ مبْنِيٍّ، أو شيءٍ مُسقَّفٍ.

وَخَرُّوا: الخُرورُ والخَرُّ: السُّقوطُ مِنْ عُلُوٍّ إِلَى الأرضِ، وخرَّ: سقَط على وَجهِه، وأصلُ (خرَّ): هو اضْطِرابٌ، وسُقوطٌ معَ صوتٍ.

الْبَدْوِ: أي: الباديةِ، وهي كلُّ مكانٍ يبدو ما يَعِنُّ فيه، أي: يعرِضُ، أو خلافُ الحضَرِ، وأصلُ (بدو): هو ظُهورُ الشَّيءِ.

نَزَغَ: أي: أفسَدَ وأغْرى، وحمَلَ بعضَنا على بعضٍ، وأصلُ (نزغ): يدلُّ على إفسادٍ بين اثنينِ.

فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ: أي: خالِقَهما ومُبدِعَهما ومُبتدِئَهما، وأصلُ (فطر): الشَّقُّ طولًا، ويدلُّ على فتْحِ شيءٍ، وإبرازِه.

تفسير الآيات:

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ (99).

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ.

أي: فرحَلَ يعقوبُ بأهلِه جميعًا إلى مصرَ، فلَمَّا دخَلوا على يوسُفَ ضمَّ يوسُفُ إليه أبويْه، واختصَّهما بقُربِه.(109)

(109) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (349/13)، ((تفسير ابن عطية)) (281/3)، ((تفسير ابن كثير)) (411/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 405).

قال ابنُ الجوزيّ: (في قولِه تعالى: آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ قولانِ: أحدُهما: أبوه وخالتُه؛ لأنَّ أمَّه كانت قد ماتتْ؛ قاله ابنُ عبَّاسٍ والجمهورُ. والثَّاني: أبوه وأمُّه؛ قاله الحسنُ وابنُ إسحاقَ).

((تفسير ابن الجوزي)) (473/2).

قال ابنُ جريرٍ: (وأولى القَولينِ في ذلك بالصَّوابِ ما قاله ابنُ إسحاقَ؛ لأنَّ ذلك هو الأغلبُ في استِعمالِ النَّاسِ والمُتعارَفُ بينهم في «أبوين»، إلَّا أنْ يصِحَّ ما يُقال مِن أنَّ أمَّ يُوسفَ كانت قد ماتت قبل ذلك بحُجَّةٍ يجِبُ التَّسليمُ لها، فيُسَلَّمُ حينئذٍ لها).

((تفسير ابن جرير)) (352/13).

قال ابنُ كثيرٍ بعد ذكرِه قولَ ابنِ جريرٍ: (وهذا الَّذي نصَرَه هو المنصورُ الَّذي يدلُّ عليه السِّياقُ).

((تفسير ابن كثير)) (411/4، 412).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (281/3)، ((تفسير أبي حيان)) (326/6).

وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ.

أي: وقال يوسُفُ لجميعِ أهلِه: ادخُلوا مِصرَ آمنينَ- إنْ شاءَ اللَّهُ- مِن المكارِهِ والمَخاوِفِ.(110)

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100).

---

(110) اختُلِف في وقت قول يوسف: ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ على قولين: الأول: أنّ يوسف قال لهم هذا قبل دخولهم مصر، وذلك حين استقبلهم على مشارفها.

وهو قول السدي.

الثاني: أنّ في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، فالمعنى: سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله، إنه هو الغفور الرحيم.

هذا قول ابن جريج.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٣/ ٣٥١) القول الأول، وانتقد الثاني مستندًا إلى ظاهر ترتيب الكلام في الآية، فقال: «والصواب من القول في ذلك عندنا ما قاله السدي، وهو أنّ يوسف قال ذلك لأبويه ومَن معهما مِن أولادهما وأهاليهم قبل دخولهم مصر حين تلقاهم؛ لأنّ ذلك في ظاهر التنزيل كذلك، فلا دلالة تدل على صحة ما قال ابن جريج، ولا وجه لتقديم شيء من كتاب الله عن موضعه أو تأخيره عن مكانه إلا بحجة واضحة».

وانتقد ابنُ عطية (٥/ ١٥٢) قول ابن جريج بقوله: «وفي هذا التأويل ضعف».

ولم يذكر مستندًا.

ووافقهما ابنُ كثير (٨/ ٧٣)، وانتقد القول الأول أيضًا مستندًا إلى الدلالة العقلية، والنظائر، فقال: «وفي هذا نظر أيضًا؛ لأن الإيواء إنما يكون في المنزل، كقوله: ﴿آوى إليه أخاه﴾ وفي الحديث: «من آوى محدثا»».

ثم قال: «وما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه: ﴿ادخلوا مصر﴾ وضمَّنه: اسكنوا مصر ﴿إن شاء الله آمنين﴾ أي: مما كنتم فيه من الجهد والقحط».

وقال ابنُ القيم (٢/ ٧٦): «لعلَّه إنما قالها عند تلقيه لهم، ويكون دخولهم عليه في منزل اللقاء، فقال لهم حينئذ: ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ فهذا محتمل.

وإن كان إنما قال لهم ذلك بعد دخولهم عليه في دار مملكته فالمعنى: ادخلوها دخول استيطان واستقرار آمنين إن شاء الله».

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ.

أي: وأجلَسَ يوسُفُ أباه وأمَّه(111) على السَّريرِ الَّذي يجلِسُ عليه.

وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا.

أي: وخرَّ أبو يوسُفَ وأمُّه وإخوتُه الأَحدَ عشَرَ ساجِدينَ لِيوسُفَ؛ تحيةً له وتعظيمًا.(112)

وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا.

أي: وقال يوسُفُ لأبيه يعقوبَ: يا أبتِ هذا السُّجودُ منكم هو ما آلَتْ إليه رُؤْيايَ الَّتي رأيْتُها في مَنامي مِن قبلُ- وذلك حينَ رأى أنَّ الشَّمسَ والقمَرَ وأحدَ عشَرَ كوكبًا له ساجِدينَ- قد حقَّقَ ربِّي وُقوعَها، وجعَلَها صادِقةً.

---

(111) اختُلِف في المراد بـ ﴿أبويه﴾ على قولين: الأول: أنّ المراد: أبوه وخالته.

الثاني: أن المراد: أبوه وأمه.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٣/ ٣٥٢) مستندًا إلى الأشهر في اللغة القول الثاني، فقال: «وأولى القولين في ذلك بالصواب ما قاله ابن إسحاق؛ لأن ذلك هو الأغلب في استعمال الناس والمتعارف بينهم في أبوين، إلا أن يصح ما يقال من أن أم يوسف كانت قد ماتت قبل ذلك بحجة يجب التسليم لها، فيسلم حينئذ لها».

وبنحوه ابنُ عطية (٥/ ١٥١)، وكذا ابنُ كثير (٨/ ٧٣).

وزاد ابنُ عطية قولًا آخر عن الزهراوي: أنّ المراد أبوه وجدته.

(112) قال ابنُ عطية (٥/ ١٥٢): «وأجمع المفسرون أنّ ذلك السجود -على أي هيئة كان- فإنّما كان تحيَّة لا عبادة».

وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ.

أي: وقد أحسَنَ ربِّي إليَّ حينَ أخرَجَني مِن السِّجنِ، وجاءَ بكم مِن بادِيةِ الشَّامِ إلى حاضِرةِ مصرَ.

مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي.

أي: مِن بعدِ أنْ دخَلَ الشَّيطانُ بيني وبين إخوتي، فأفسَدَ ما بَيننا بالحسَدِ، وأغْرى بعضَنا ببعضٍ.

إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء.

أي: إنَّ ربِّي لطيفٌ لِما يُريدُه بعِبادِه مِن البِرِّ والرَّحمةِ؛ فيُيسِّرُ لهم الخيرَ بطُرُقٍ خفيَّةٍ دقيقةٍ، مِن حيثُ لا يَعلمونَ، ولا يَحتسِبونَ.

إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.

أي: إنَّ اللَّهَ هو العَليمُ بمصالِحِ خَلْقِه وغيرِ ذلك، لا يَخْفَى عليه ظواهِرُ الأمورِ وبواطنُها، ولا مَبادئُها وعَواقبُها، الحكيمُ في أفعالِه وأقوالِه وتَدبيرِه؛ فيضَعُ كلَّ شيءٍ في موضِعِه اللَّائقِ به، ويَسوقُ الأمورَ إلى أوقاتِها المُقدَّرةِ لها.

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101).

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ.

أي: قال يوسُفُ: يا ربِّ، قد آتيتَني مِن مُلْكِ مصرَ بالتَّصرُّفِ في شُؤونِ خَزائنِها.

وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ.

أي: وعلَّمتَني- يا ربِّ- مِن تَعبيرِ الرُّؤى، ومِن عُلومِ الكُتُبِ المُنزَّلةِ، وسُنَنِ الأنبياءِ.

فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ.

أي: يا خالِقَ السَّمواتِ والأرضِ، أنت ناصِري ومُتولِّي أُموري في الدُّنيا وفي الآخرةِ.

تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ.

أي: اقبِضْني إليك– يا ربِّ– إذا جاء أَجَلي وأنا ثابِتٌ على الإسلامِ، وألْحِقْني في الثَّوابِ والدَّرجاتِ بالصَّالِحِين مِن آبائي؛ إبراهيمَ وإسحاقَ وغيرِهما مِن الأنبياءِ والمُرسَلينَ.(113)

(113) قال القُرطبيُّ: (قيل: إنَّ يُوسفَ لم يتمَنَّ الموتَ، وإنَّما تمَنَّى الوفاةَ على الإسلامِ، أي: إذا جاء أجلي توفَّني مُسلمًا، وهذا قولُ الجُمهورِ).

((تفسير القرطبي)) (269/9).

ذكر ابنُ كثير (٨/ ٧٧ – ٧٨) أنّ هذا الدعاء من يوسف – عليه السلام – يحتمل عدة احتمالات: الأول: أنّه قاله عند احتضاره.

الثاني: أنّه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا حان أجله، وانقضى عمره؛ لا أنه سأل ذلك منجزًا، كما يقول الداعي لغيره: أماتك الله على الإسلام.

الثالث: أنه سأل ذلك منجزًا، وكان ذلك سائغًا في مِلَّتهم.

الرابع: أنّه أول مَن سأل إنجاز ذلك.

ونسب ابنُ عطية (٥/ ١٥٦) الاحتمال الثاني للمهدوي، ورجَّحه، فقال: «وهو الأقوى عندي».

ولم يذكر مستندًا.

وكذا رجَّحه ابنُ تيمية (٤/ ٦٧ بتصرف) مستندًا إلى النظائر، فقال: «والصحيح أنه لم يسأل الموتَ، ولم يَتَمَنَّه، وإنّما سأل أنّه إذا مات يموت على الإسلام؛ فسأل الصفة لا الموصوف كما أمر الله بذلك؛ وأمر به خليله إبراهيم، وإسرائيل».

سُورةُ يُوسُفَ

الآيات (102– 107)

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102)
وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (103) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِلْعَالَمِينَ (104) وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ
(105) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ
عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (107)

غريب الكلمات:

غَاشِيَةٌ: أي: عُقوبةٌ تَغشاهم وتَشملُهم، وأصْلُ (غشي): يدلُّ على تغْطيةِ شيءٍ بشيءٍ.

بَغْتَةً: أي: فجأَةً، وكلُّ ما جاءَ فجأةً فقد بَغتَ، يقال: قد بَغَتَه الأمرُ يَبْغَتُه بغْتًا وبَغتةً، إذَا أتاه فجأةً، وأصْلُ (بغت): مُفاجأةُ الشَّيءِ مِن حيث لا يحتسِبُ.

تفسير الآيات:

ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102).

ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ.

أي: ذلك الَّذي قَصَصْنا في هذه السُّورةِ– مِن خبَرِ يوسُفَ وغيرِه ممَّا غاب عنك عِلْمُه– نُوحيه إليك– يا مُحَمَّدُ– وَنُعْلِمُكَ به؛ لنُثبِّتَ به فؤادَك، ولتَصبِرَ على ما أصابَكَ.

وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ.

أي: وما كنتَ حاضرًا– يا مُحَمَّدُ– عند إخوةِ يوسُفَ حين اتَّفقَتْ آراؤُهم، وصحَّتْ عَزائمُهم على إلْقاءِ يوسُفَ في الجُبِّ، والحالُ أنَّهم يَمكُرون به في هذا الفعْلِ، ويبْغونَ له الغَوائلَ.

وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (103).

أي: وما أكثَرُ النَّاسِ– يا محمَّدُ– ولو حرصْتَ على هِدايتِهم بمُؤمنِينَ باللَّهِ، وبما جئْتَهم به مِن عِندِه سُبحانَه.

كما قال تعالى: وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ الأنعام: 116.

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (104).

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ.

أي: وما تطلُبُ منهم– يا محمَّدُ– على تَذكيرِهم بالقُرآنِ، ونُصْحِهم، ودَعوتِهم إلى الإيمانِ أُجْرةً.

كما قال تعالى: قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ الأنعام: 90.

إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ.

أي: ما القُرآنُ إلَّا عِظَةٌ وتذْكِرةٌ للعالَمينَ، يَتذكَّرون به، ويهتَدون.

كما قال تعالى: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ الإسراء: 9.

وقال سبحانه: قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ المائدة: 15– 16.

وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (105).

أي: وكَمْ مِن علاماتٍ كثيرةٍ في السَّمواتِ والأرضِ دالَّةٍ على أنَّ اللهَ هو المستحِقُّ للعِبادةِ وحْدَه، يمُرُّ عليها النَّاسُ ويرَونَها، وهم عن التَّفكُّرِ فيها والاعتِبارِ بها مُعرِضون.

كما قال تعالى: وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ الأنبياء: 32.

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (106).

أي: وما يُقِرُّ أكثَرُ النَّاسِ[114] بأنَّ اللهَ ربُّهم إلَّا وهم مُشرِكون به غيرَه في عِبادتِه!

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان المُشرِكون يقولون: لبَّيكَ لا شَريكَ لك، قال: فيقولُ رسولُ اللهِ – ﷺ –: ويْلَكُم، قدْ قدْ!!،[115] فيقولونَ: إلَّا شَريكًا هو لك، تملِكُه وما ملَكَ؛ يقولونَ هذا وهم يَطوفونَ بالبيتِ))![116]

وعن مَعْقِلِ بنِ يَسارٍ، قال: ((انطلقْتُ مع أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضِيَ اللهُ عنه إلى النَّبيِّ – ﷺ –، فقال: يا أبا بكرٍ، لَلشِّرْكُ فيكم أَخْفَى مِن دَبيبِ النَّمْلِ، فقال أبو بكرٍ: وهل الشِّرْكُ إلَّا مَن جعَلَ مع اللهِ إلهًا آخَرَ؟ فقال النَّبيُّ – ﷺ –: والَّذي نفسي بيدِه، لَلشِّرْكُ أَخفَى مِن دَبيبِ النَّمْلِ! ألَا أدُلُّك على شيءٍ إذا قُلْتَه ذهَبَ عنك قليلُه وكثيرُه؟، قال: قل: اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بكَ أنْ أُشْرِكَ بكَ وأنا أعلَمُ، وأستغفِرُك لِمَا لا أعلَمُ)).[117]

---

(114) قال ابنُ جريرٍ: (يقول تعالى ذِكْرُه: وما يقِرُّ أكثرُ هؤلاءِ الَّذين وصَفَ عزَّ وجلَّ صِفَتَهم بقولِه: وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ باللهِ أنَّه خالِقُه ورازِقُه وخالقُ كلِّ شيءٍ، إلَّا وهم به مشركونَ...).
((تفسير ابن جرير)) (372/13).
وقال الشِّنقيطيُّ: (قال ابنُ عبَّاسٍ، والحسنُ، ومُجاهدٌ، وعامرٌ الشَّعبيُّ، وأكثرُ المُفسِّرينَ: إنَّ معنى هذه الآيةِ: أنَّ أكثرَ النَّاسِ– وهم الكُفَّارُ– ما كانوا يُؤمنونَ باللَّهِ بتَوحيدِهم له في رُبوبيَّتِه إلَّا وهم مُشرِكون به غيرَه في عِبادتِه).
((أضواء البيان)) (218/2).

(115) قَدْ قَدْ: أي: كفاكم هذا الكلامُ، فاقتَصِروا عليه، ولا تَزيدُوا.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (90/8).

(116) رواه مسلم (1185).

(117) أخرجه البخاري في ((الأدب المفرد)) (716) واللفظ له، وأبو يعلى (60)، وابن بطة في ((الإبانة الكبرى)) (982).
قال ابنُ القيِّمِ في ((بدائع الفوائد)) (242/2): مشهورٌ، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الأدب المفرد)) (551).

وعن سَعدِ بنِ عُبَيدةَ، ((أنَّ ابنَ عمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما سمِعَ رجلًا يقولُ: لا والكَعبةِ، فقال ابنُ عمَرَ: لا يُحْلَفُ بغيرِ اللَّهِ؛ فإنِّي سمِعْتُ رسولَ اللَّهِ – ﷺ – يقولُ: مَن حلِفَ بغيرِ اللَّهِ فقد كفَرَ، أو أشْرَكَ)).(118)

وعن مَحمودِ بنِ لبيدٍ رضِيَ اللَّهُ عنه، أنَّ رسولَ اللَّهِ – ﷺ – قال: ((إنَّ أخوَفَ ما أخافُ عليكم الشِّرْكُ الأصغَرُ، قالوا: وما الشِّرْكُ الأصغَرُ يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: الرِّياءُ؛ يقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لهم يومَ القيامةِ إذا جُزِيَ النَّاسُ بأَعمالِهِم: اذْهَبوا إلى الَّذين كنتُم تُراؤونَ في الدُّنيا، فانْظُروا هل تجِدونَ عندهم جزاءً؟!)).(119)

أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (107).

---

(118) أخرجه أبو داود (3251)، والترمذي (1535) واللفظ له، وأحمد (6072).
حسَّنَه التِّرمذيُّ، وصحَّحَه على شرطِ الشَّيخينِ الحاكمُ في ((المستدرك)) (330/4)، وصحَّحه ابنُ المُلقِّنِ في ((البدر المنير)) (458/9)، وابنُ بازٍ في ((مجموع الفتاوى)) (144/3)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (1535).

(119) أخرجه أحمد (23630) واللفظ له، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (6831)، والبغوي في ((شرح السنة)) (4135).
جوَّدَ إسنادَه المُنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (52/1)، ووثَّقَ رِجالَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (361/3)، وقال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (107/1): رِجالُه رِجالُ الصَّحيحِ.
وحسَّنَ إسنادَه ابنُ حجرٍ في ((بلوغ المرام)) (440)، وصحَّحَ الحديثَ ابنُ بازٍ في ((مجموع الفتاوى)) (29/2)، والألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (1555).

أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ.

أي: أفأمِنَ أولئك الَّذين لا يُؤمنونَ باللَّهِ إلَّا وهم مُشرِكون أنْ تأتِيَهم عُقوبةٌ مِن اللَّهِ تغْشاهم وتُحيطُ بهم؛ بسبَبِ شِرْكِهم باللَّهِ؟!

كما قال تعالى: أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ الأعراف: 97-99.

وقال سبحانه: أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ النحل: 45- 47.

أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ.

أي: أوْ أَمِنَ الَّذين لا يُؤمِنونَ باللَّهِ إلَّا وهم مُشرِكون أنْ تأتِيَهم القِيامةُ فجأَةً وهم لا يَدْرونَ بمَجيئِها؟! فلْيَتوبوا إلى اللَّهِ إذًا.

كما قال تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ الزخرف: 66.

وقال سبحانه: فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ محمد: 18.

سُورةُ يُوسُفَ

الآيات (108– 111)

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (109) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110)

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)

غريب الكلمات:

بَصِيرَةٍ: أي: يقينٍ، والبصيرةُ كذلك: الحُجَّةُ والبَيانُ، وأصْلُ (بصر): وُضُوحُ الشَّيءِ.

بَأْسُنَا: أي: عذابُنا، وأصْلُ (بأس): الشِّدَّةُ وما ضاهاها.

عِبْرَةٌ: أي: اعتِبارٌ وموعظةٌ، والاعْتبارُ والعِبرةُ: الحالةُ التي يتوصَّلُ بها مِن معرفةِ المشاهَدِ إلى ما ليسَ بمشاهَدٍ، وأصلُ (العَبْرِ): تجاوزٌ مِن حالٍ إلى حالٍ.

يُفْتَرَى: أي: يُكْذَبُ ويُخْتَلَقُ، والافتِراءُ: الاختِلاقُ، أو العظيمُ مِن الكذِبِ، وأصْلُه مِن (الفَرْيِ): وهو قطْعُ الشيء.

تفسير الآيات:

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108).

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي.

أي: قلْ- يا مُحمَّدُ- للنَّاسِ: هذه طريقَتِي؛ أدْعو إلى تَوحيدِ اللَّهِ على بيِّنةٍ وعِلْمٍ، ويَقينٍ منِّي بصحَّةِ ذلك مِن غيرِ شكٍّ، أنا وكلُّ مَن اتَّبعَني كذلك ندْعو إلى عِبادةِ اللَّهِ وحْدَه على بيِّنةٍ وعلْمٍ.[120]

وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

أي: وقلْ- يا محمَّدُ- تَعظيمًا للَّهِ: أُنَزِّه اللَّهَ عن جَميعِ النقائصِ؛ كأنْ يكونَ له شريكٌ في المُلْكِ أو العِبادةِ، أو يكونَ له مثيلٌ أو ولَدٌ أو صاحبةٌ أو مُعِينٌ، وأتبرَّأُ مِن الَّذين يَعبُدون غيرَه، ولا أعبُدُ إلَّا اللَّهَ وحْدَه.

---

(120) قال ابنُ القيِّم: (قال تعالى: قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وسواءٌ كان المعنى: أنا ومَن اتَّبعني يَدعو إلى اللَّهِ على بصيرةٍ، أو كان الوقفُ عند قولِه: أَدْعُو إِلَى اللَّهِ، ثمَّ يبتدئُ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي؛ فالقولانِ مُتلازمانِ؛ فإنَّه أمَرَه سبحانه أنْ يخبِرَ أنَّ سبيلَه الدَّعوةُ إلى اللَّهِ، فمَن دعا إلى اللَّهِ تعالى فهو على سَبيلِ رسولِه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، وهو على بَصيرةٍ، وهو مِن أتباعِه، ومَن دعا إلى غيرِ ذلك فليس على سبيلِه، ولا هو على بصيرةٍ، ولا هو مِن أتباعِه؛ فالدَّعوةُ إلى اللَّهِ تعالى هي وظيفةُ المُرسَلينَ وأتْباعِهم، وهم خُلفاءُ الرُّسلِ في أُمَمِهم، والنَّاسُ تبَعٌ لهم).
((جلاء الأفهام)) (ص: 415).

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ **(109)**.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى.

أي: وما أرسَلْنا الأنبياءَ مِن قَبْلِك- يا مُحمَّدُ- إلَّا رجالًا- لا مَلائكةً ولا نِساءً- نُوحِي إليهم أنْ يأْمُروا النَّاسَ بتوحيدي، وإفرادِ العِبادةِ لي، ويَدْعُوهم إلى طاعتِي، وهم مِن أهلِ المُدُنِ لا مِن أهلِ البَوادي.[121]

أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ.

أي: أفلم يَسِرْ هؤلاء المُشرِكون المُكذِّبون لك- يا محمَّدُ- في الأرضِ، فينْظُروا كيف أهلَكَ اللَّهُ الأُمَمَ الَّذين كذَّبوا رسلَهم مِن قبلِهم، فيَعتَبِروا؟!

(121) قال ابنُ تيمية: (حَكَى الإجماعَ على أنَّه لم يكُنْ في النِّساءِ نبيَّةٌ غيرُ واحدٍ؛ كالقاضي أبي بكرِ بنِ الطيب، والقاضي أبي يَعلَى، وأبي المعالي الجُوينيّ، وخِلافُ ابنِ حزمٍ شاذٌّ مَسبوقٌ بالإجماعِ؛ فإنَّ دعواه أنَّ أمَّ موسى كانتْ نبيَّةً هي ومريمُ قولٌ لا يُعْرَفُ عن أحدٍ مِن السَّلَفِ والأئمة).
((الصفدية)) (198/1).
وقال ابنُ كثيرٍ: (يخبِرُ تعالى أنَّه إنَّما أرسَلَ رُسلَه مِن الرِّجالِ لا مِن النِّساءِ.
وهذا قولُ جُمهورِ العلماءِ، كما دلَّ عليه سِياقُ هذه الآيةِ الكريمةِ: أنَّ اللَّهَ تعالى لم يُوحِ إلى امرأةٍ مِن بناتِ بني آدمَ وَحْيَ تشريعٍ).
((تفسير ابن كثير)) (422/4).

وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ.

أي: وكما أنْجَينا المُتَّقِين في الدُّنيا عندَ نزولِ العُقوبةِ بالمُشرِكين والعُصاةِ، كذلك كتَبْنا لهم النَّجاةَ في الدَّارِ الآخِرةِ أيضًا، والجنَّةُ خَيرٌ لهم مِن الدُّنيا وأحسَنُ.(122)

أَفَلاَ تَعْقِلُونَ.

أي: أفلا تعقِلون حَقيقةَ ما أخبَرْناكم به في القُرآنِ مِن سُوءِ عاقِبةِ الكُفْرِ، وخيريَّةِ الدَّارِ الآخرةِ، فتُؤمِنوا باللَّهِ، وتتَّقوا الإشراكَ به؟!

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110).

---

(122) قال ابن جرير: وقولُه: وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ يقولُ تعالَى ذِكرُه: هذا فِعْلُنا في الدُّنيا بأهلِ ولايَتِنا وطاعَتِنا، إنَّ عقوبَتَنا إذا نَزلَتْ بأهلِ معاصينا والشِّرْكِ بنا أنْجَيْناهم منها، وما في الدَّارِ الآخرةِ لهم خيرٌ، وتَرَك ذكرَ ما ذَكَرْنا اكتِفاءً بدلالةِ قولِه: وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عليه).

((تفسير ابن جرير)) (381/13).

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ.

أي: حتَّى[123] إذا يئِس رُسلُ اللَّهِ،[124] وخطَر بقلوبِهِم، وحدَّثتْهم أنفسُهم أنَّهم قد أُخلِفوا فيما وعَدَهم اللَّهُ به مِن النَّصرِ؛ لطولِ البلاءِ عليهم، وإبطاءِ النصرِ- أتاهم نصْرُنا فجأةً، فنَجَّيْناهم وأتْباعَهم[125] المُؤمنينَ.[126]

---

(123) قال ابن حجر: (واختُلِفَ فيما تعَلَّقَت به الغايةُ مِن قَولِه: حَتَّى فاتَّفقوا على أنَّه محذوفٌ، فقيل التقدير: وما أرسَلْنا من قبلك إلَّا رِجالًا يُوحَى إليهم، فتراخى النَّصرُ عنهم حتى إذا...

وقيل: التقديرُ: فلم تُعاقَبْ أمَمُهم حتى إذا...

وقيل: فدَعَوا قومَهم فكَذَّبوهم فطال ذلك حتى إذا...).

((فتح الباري)) (8/ 367).

(124) قال ابن الجوزي: (حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ، وفيه قولانِ: أحدُهما: اسْتَيْأسوا مِن تصديقِ قومِهم، قاله ابنُ عباسٍ.

والثاني: مِن أن نعذِّبَ قومَهم، قاله مجاهدٌ).

((تفسير ابن الجوزي)) (2/ 477).

ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (3/72).

قال ابنُ القيِّم: (قال الله تعالى: حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فلمَّا ذكَرَ أنَّ الرُّسُلَ هم الذين استيأسُوا، كان فيه دليلٌ على أنَّهم دخل قلوبَهم يأسٌ مِن غيرِ يَقينٍ استيقَنوه؛ لأنَّ اليقينَ في ذلك إنَّما يأتيهم مِن عندِ اللهِ).

((زاد المعاد)) (5/ 586).

(125) قال الرسعني: (والمرادُ بـ مَنْ نَشَاءُ: المؤمنونَ؛ لأنَّهم أهلُ النجاةِ، ويدلُّ عليه قولُه: وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ).

((تفسير الرسعني)) (3/431).

(126) قال الرسعني بعد أن ذكَرَ قَولَ ابنِ عبَّاسٍ: (كانوا بَشرًا، فضَعُفوا ويَئِسوا، وظَنُّوا أنَّهم أُخْلِفوا)، قال: (وهذا التأويلُ مَزلَّةُ الأقدامِ، ومَدحَضةُ الأفهامِ، وفيه سِرٌّ لا يفهَمُه إلا غوَّاصٌ على المعاني، بحَّاثٌ عنها؛ فإنه لا يجوزُ أن يُظَنَّ بابنِ عبَّاسٍ أنَّه أراد بتأويلِه تطريقَ الشَّكِّ الذي هو تغليبُ أحد الجانبَينِ على الآخرِ، أو تساويهما على رُسُلِ اللهِ المعصومينَ عن مثلِ ذلك! بل أراد ما يَرِدُ على القَلبِ، ويهْجِسُ فيه من حديثِ النَّفسِ، وعوارِضِ الوَساوسِ، الذي لا يَسلَمُ منه أحَدٌ مِن البشرِ، فتفَهَّمْ ذلك).

((تفسير الرسعني)) (3/ 429).

قال السَّعدي تحتَ قاعدةِ: (الأمورُ العارِضةُ التي لا قرارَ لها بسَبَبِ المُزعِجاتِ أو الشُّبُهاتِ، قد تَرِدُ على الحَقِّ وعلى الأمورِ اليقينيَّةِ، ولكِنْ سُرعانَ ما تضمَحِلُّ وتزولُ)-

قال: (الرُّسُلُ- صَلَواتُ اللهِ وسلامُه عليهم- أكمَلُ الخَلقِ إيمانًا ويَقينًا، وتصديقًا بوَعدِ اللهِ ووَعيدِه، وهذا أمرٌ يجِبُ على الأُمَمِ: أن يعتقِدوا في الرُّسُلِ من أنَّهم قد بَلَغوا الذِّروةَ فيه، وأنَّهم معصومونَ مِن ضِدِّه، ولكِنْ ذكَر اللهُ في بعض الآياتِ أنَّه قد يَعرِضُ لهم بعضُ الأمورِ المُزعِجةِ المُنافيةِ حِسًّا لِما عُلِمَ يَقينًا، ما يوجِبُ لهؤلاء الكُمَّلِ أن يَستبطِئوا معه النَّصرَ، ويقولون: مَتَى نَصْرُ اللَّهِ [البقرة: 214] ، وقد يَخطُرُ في هذه الحالةِ على القُلوبِ شَيءٌ مِن عوارِضِ اليأسِ بحَسَبِ قُوَّةِ الوارداتِ، وتأثيرِها في القلوبِ، ثمَّ في أسرعِ وَقتٍ تنجلي هذه الحالُ، وتنفرِجُ الأزمةُ، ويأتي النَّصرُ مِن قَريبٍ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ [البقرة: 214]، فعندئذٍ يصيرُ لِنَصرِ اللهِ وصِدقِ مَوعودِه مِن الوقعِ والبِشارةِ والآثارِ العَجيبةِ أمرٌ كبيرٌ، لا يَحصُلُ بدونِ هذه الحالةِ؛ ولهذا قال: حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا؛ فلهذا الواردِ الذي لا قرارَ له، وعندما حقَّت الحقائِقُ اضمحَلَّ وتلاشى، لا يُنكَرُ ويُطلَب للآياتِ تأويلاتٌ مخالِفةٌ لظاهِرِها).

((القواعد الحسان لتفسير القرآن)) (ص: 155).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (لا يمتنِعُ على الأنبياءِ أن يظُنُّوا شيئًا فيكون الأمرُ بخلافِ ما ظنُّوه؛ فقد يظُنُّون فيما وُعِدوه تعيينًا وصفاتٍ، ولا يكونُ كما ظنُّوه، فييأسون ممَّا ظنوه في الوعدِ، لا من تعيينِ الوعدِ).

((مجموع الفتاوى)) (15/ 186).

وقال الخطَّابي: (يحتَمِلُ أن يقال: إنَّهم عند تطاوُلِ مُدَّةِ البلاء عليهم وإبطاءِ نجزِ العِدَةِ عنهم وشِدَّةِ مُطالبةِ القَومِ إيَّاهم بما كانوا يَعِدونَهم من النُّصرة؛ دخَلَتْهم الرِّيبةُ حتى توهَّموا أن الذي جاءهم من الوحي لعلَّه كان حُسبانًا منهم ووَهمًا، فارتابوا بأنفُسِهم وظنُّوا عليها الغلَطَ في تلقِّي ما ورد عليهم من القَولِ، فيكون معنى الكَذِب في هذا متأوَّلًا على الغَلَطِ...

ومَرجِعُ الأمر في هذا الباب: أن الذي عَرَض من الريبةِ إنَّما ينصرف إلى الوسائِطِ التي هي مُقَدِّمات الوحيِ، لا إلى نفسِ الوحي وأصلِه بعد حصولِ العلم به، والله أعلم).

((أعلام الحديث)) (3/ 1813)، وينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (8/368، 369).

وأما ما رواه البخاري (4525) بسنده عن ابنِ أبي مُلَيْكَةَ، قال: قال ابنُ عبَّاسٍ رضِيَ اللَّهُ عنهما: (حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا خفيفةً، ذهَبَ بها هناك، وتلا: حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ [البقرة: 214]، فلقِيتُ عُروةَ ابنَ الزُّبيرِ فذكَرْتُ له ذلك، فقال: قالت عائشةُ: مَعاذَ اللَّهِ! واللَّهِ ما وعَدَ اللَّهُ رسولَه مِن شيءٍ قطُّ إلَّا علِمَ أنَّه كائنٌ قبلَ أنْ يموتَ، ولكِنْ لم يَزَلِ البَلاءُ بالرُّسلِ، حتَّى خافوا أنْ يكونَ مَن معهم يُكذِّبونهم، فكانت تقرَؤُها: وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا مُثقَّلةً).

وكذلك ما رواه البخاري أيضًا (4695) بسندِه عن عُروةَ بنِ الزُّبيرِ، عن عائشةَ رضِيَ اللَّهُ عنها، (قالتْ له وهو يسألُها عن قولِ اللَّهِ تعالى: حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ قال: قلْتُ: أكُذِبوا أم كُذِّبوا؟ قالت عائشةُ: كُذِّبُوا.

قلت: فقدِ استيقَنوا أنَّ قومَهم كذَّبوهم؛ فما هو بالظَّنِّ؟ قالت: أجلْ! لَعَمْري لقد استيْقَنوا بذلك.

فقلتُ لها: وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا قالت: مَعاذَ اللَّهِ! لم تكُنِ الرُّسلُ تظنُّ ذلك بربِّها.

قلْتُ: فما هذه الآيةُ؟ قالت: هم أتْباعُ الرُّسلِ الَّذين آمَنوا بربِّهم وصدَّقوهم، فطالَ عليهم البلاءُ واستأْخَرَ عنهم النَّصرُ، حتَّى إذا استيئَسَ الرُّسلُ ممَّن كذَّبَهم مِن قومِهم، وظنَّتِ الرُّسلُ أنَّ أتْباعَهم قد كذَّبوهم؛ جاءَهم نصْرُ اللهِ عند ذلك).

فقد قال ابنُ حجرٍ: (قال الخطَّابيُّ: لا شكَّ أنَّ ابنَ عبَّاسٍ لا يُجيزُ على الرُّسلِ أنَّها تُكذِّبُ بالوحيِ، ولا يشكُّ في صدْقِ المُخْبِرِ،... والمُرادُ بالكذِبِ الغلَطُ لا حقيقةُ الكذِبِ، كما يقولُ القائلُ: كذَبَتْك نفسُك، قلتُ: ويؤيِّدُه قراءةُ مجاهدٍ: (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا) بفتحِ أوَّلِه مع التَّخفيفِ، أي: غَلِطوا، ويكونُ فاعلُ وَظَنُّوا الرُّسلَ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ أتباعَهم، ويُؤيِّدُه ما رواه الطَّبريُّ بأسانيدَ مُتنوِّعةٍ مِن طريقِ عمرانَ بنِ الحارثِ وسعيدِ بنِ جُبيرٍ وأبي الضُّحى وعليِّ بنِ أبي طلحةَ والعوفيِّ، كلُّهم عن ابنِ عبَّاسٍ في هذه الآيةِ، قال: أيِسَ الرُّسلُ مِن إيمانِ قومِهم، وظنَّ قومُهم أنَّ الرُّسلَ كذَبوا، وقال الزَّمخشريُّ: إنْ صحَّ هذا عن ابنِ عبَّاسٍ فقد أراد بالظَّنِّ ما يَخطِرُ بالبالِ، ويهجِسُ في النَّفسِ مِن الوسوسةِ وحديثِ النَّفسِ على ما عليه البشريَّةُ، وأمَّا الظَّنُّ -وهو ترجيحُ أحدِ الطَّرفينِ- فلا يُظَنُّ بالمُسلمِ فضلًا عن الرَّسولِ.

وقال أبو نصرٍ القُشَيريُّ: ولا يبعُدُ أنَّ المُرادَ: خطَرَ بقلْبِ الرُّسلِ، فصرَفوه عن أنفُسِهم، أو المعنى: قرُبوا مِن الظَّنِّ، كما يُقال: بلغْتُ المنزلَ؛ إذا قرُبْتَ منه.

وقال التِّرمذيُّ الحكيمُ: وجْهُه: أنَّ الرُّسلَ كانت تخافُ بعد أنْ وعَدَهم اللهُ النَّصرَ أنْ يتخلَّفَ النَّصرُ لا مِن تُهمةٍ بوعْدِ اللهِ، بل لتُهْمةِ النُّفوسِ أنْ تكونَ قد أحدثتْ حدَثًا ينقُضُ ذلك الشَّرطَ، فكان الأمْرُ إذا طال واشتدَّ البلاءُ عليهم، دخَلَهم الظَّنُّ مِن هذه الجهةِ، ..

الضَّميرُ في وَظَنُّوا عائدٌ على المُرسَلِ إليهم، وفي كُذِبُوا عائدٌ على الرُّسلِ، أي: وظنَّ المُرسَلُ إليهم أنَّ الرُّسلَ كذَبوا.

أو الضَّمائرُ للرُّسلِ، والمعنى: يئِسَ الرُّسلُ مِن النَّصرِ، وتوهَّموا أنَّ أنفُسَهم كذَبَتْهم حين حدَّثَتْهم بقُربِ النَّصرِ، أو كذَبَهم رَجاؤهم.

أو الضَّمائرُ كلُّها للمُرسَلِ إليهم، أي: يئِسَ الرُّسلُ مِن إيمانِ مَن أُرسلوا إليه، وظنَّ المُرسَلُ إليهم أنَّ الرُّسلَ كذَبوهم في جميعِ ما ادَّعوه مِن النُّبوَّةِ، والوعْدِ بالنَّصرِ لمَن أطاعهم، والوعيدِ بالعذابِ لِمَن لم يُجِبْهم).

((فتح الباري)) (8/368، 369).

وقال ابنُ تيميةَ: (فعائشةُ جعلَت اسْتِيآسَ الرُّسُلِ مِن الكُفَّارِ المُكذِّبين، وظنَّهم التَّكذيبَ مِن المؤمنين بهم، ولكنِ القراءةُ الأخرى ثابتةٌ لا يُمكِنُ إنكارُها، وقد تأوَّلَها ابنُ عبَّاسٍ، وظاهِرُ الكلامِ معه، والآيةُ الَّتي تَليها إنَّما فيها استبطاءُ النَّصرِ، وهو قولُهم: مَتَى نَصْرُ اللهِ [البقرة: 214]؛ فإنَّ هذه كلِمةُ تَبَطٍّ لطَلَبِ التَّعجيلِ.

وقولُه: وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا قد يكونُ مثلَ قولِه: إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ [الحج: 52] ، والظَّنُّ لا يُرادُ به في الكتابِ والسُّنَّةِ الاعتقادُ الرَّاجِحُ، كما هو في اصطلاحِ طائفةٍ من أهلِ الكلامِ في العِلْمِ، ويُسمُّون الاعتقادَ المرجوحَ وهمًا، بل قد قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحديثِ»، وقد قال تعالى: وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا [النجم: 28] ...

وأيضًا فقولُه: وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا قد يكونون ظنُّوا في الموعودِ به ما ليس هو فيه بطريقِ الاجتهادِ منهم، فتبيَّنَ الأمْرُ بخلافِه؛ فهذا جائزٌ عليهم، فإذا ظنَّ بالموعودِ به ما ليس هو فيه، ثمَّ تبيَّنَ الأمْرُ بخلافِه؛ ظنَّ أنَّ ذلك كذِبٌ، وكان كذِبًا مِن جهةِ ظنٍّ في الخبَرِ ما لا يجِبُ أنْ يكونَ فيه، فأمَّا الشَّكُّ فيما يَعلَمُ أنَّه أخبَرَ به؛ فهذا لا يكونُ).

كما قال تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ البقرة: 214.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: كُذِبُوا قِراءتانِ:

1- قِراءةُ كُذِبُوا بتَخفيفِ الذَّالِ، على جعلِ الضمير في قوله تعالى: وَظَنُّوا للرسلِ، فالمعنى: ظنَّ الرسلُ أنَّهم قد أُخلِفوا، والمرادُ ما يَرِدُ على القلبِ، ويهْجِسُ فيه مِن حديثِ النفسِ، وعوارضِ الوساوس، الذي لا يسلمُ منه أحدٌ مِن البشرِ، وَقِيلَ: المعنَى: وظنَّ الرُّسلُ أَنَّها قَدْ كَذَبَتْهم أنفسُهم حينَ حَدَّثَتْهم بأَنَّهم يُنْصَرُونَ عليهم، أو: كَذَبَهم رَجاؤُهم لِلنَّصْرِ.

وعلى جعلِ الضميرِ في قوله تعالى: وَظَنُّوا للمرسَلِ إليهم، لما في ذكرِ الرسل مِن دلالةٍ عليهم، فالمعنى: وظنَّ المرسلُ إليهم أنَّ الرُّسلَ قد كُذِبوا فيما وُعِدوا به مِن النَّصرِ. وقيل: ظنَّ المرسلُ إليهم أنَّ الرُّسلَ قد كَذَبوهم فيما أخبَرُوهم به مِن نُزولِ العذابِ بهم إنْ لم يؤْمِنوا؛ لِمَا شاهَدوا مِن إمهالِ اللَّهِ لهم. (127)

((مجموع الفتاوى)) (15/176، 180).

(127) قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وأبو جعفرٍ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/296).

2- قِراءةُ كُذِّبُوا بتَشْديدِ الذَّالِ، بجَعْلِ الظَّنِّ للأنبياءِ بمعنى العِلْمِ، والمعنى: ولَمَّا أيقَنَ الأنبياءُ أنَّ قومَهم قد كَذَّبوهم فلن يُصدِّقوهم، جاء الرُّسلَ نصْرُنا. وقيل: ظنَّ الأنبياءُ أنَّ المؤْمنينَ بهم يُكذِّبونهم، وخافوا أنْ يدخُلَ قُلوبَ أتباعِهم شكٌّ.(128)

وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ.

أي: ولا يقدِرُ أحدٌ أنْ يرُدَّ عذابَنا عنِ القومِ المُشرِكينَ المُكذِّبينَ للرُّسلِ.

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111).

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ.

ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 199)، ((معاني القراءات)) للأزهري (52/2)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (442/4، 443)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 366، 367)، ((الكشف)) لمكي (16/2)، ((تفسير القرطبي)) (276/9)، ((تفسير الشوكاني)) (73/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 407).

(128) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (296/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 199)، ((معاني القراءات)) للأزهري (52/2)، ((تفسير القرطبي)) (275/9).

أي: لقد كان في قَصَصِ يوسُفَ وإخوتِه وقَصَصِ المُرسَلين مع أُمَمِهم، وكيف نجَّى اللَّهُ المؤمنِينَ وأهلَكَ الكافرين؛ عِظَةٌ لأهْلِ العُقولِ السَّليمةِ يعتَبِرون بها.(129)

مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى.

أي: ما كان القُرآنُ وما فيه مِن الأخبارِ والقَصصِ حديثًا يُكذَبُ ويُختلَقُ.

وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ.

أي: ولكنِ القُرآنُ يُصدِّقُ الكُتُبَ الَّتي أنزَلَها اللَّهُ مِن قَبْلُ على الأنبياءِ، ويَشهَدُ لِما فيها مِن الصَّحيحِ الَّذي لم يُحَرَّفْ أنَّه حَقٌّ مِن عند اللَّهِ.

(129) قال ابنُ جريرٍ: (قال جلَّ ثناؤه للمُشركِين مِن قُريشٍ مِن قومِ نبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: لقد كان لكم- أيُّها القومُ- في قَصصِهم عِبرةٌ لو اعتبَرْتم به؛ أنَّ الَّذي فعَلَ ذلك بيُوسفَ وإخوتِه لا يَتعذَّرُ عليه أنْ يفعَلَ مثلَه بمحمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فيُخْرِجَه مِن بين أظهُرِكم، ثم يُظْهِرَه عليكم، ويُمكِّنَ له في البِلادِ، ويُؤَيِّدَه بالجُنْدِ والرِّجالِ مِن الأتباعِ والأصحابِ، وإنْ مرَّتْ به شدائدُ، وأتَتْ دونَه الأيَّامُ واللَّيالي، والدُّهورُ والأزمانُ).

((تفسير ابن جرير)) (13/401- 402).

وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ.

أي: والقُرآنُ يُبيِّنُ كلَّ ما يَحتاجُ العِبادُ إلى بَيانِه مِن العَقائدِ، والشَّرائعِ والأحكامِ، والأخبارِ.

وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

أي: والقُرآنُ هدًى مِن كلِّ ضلالةٍ لِمَنِ اتَّبعَه، ورحمةٌ في الدُّنيا والآخِرةِ للمُصدِّقينَ به، العامِلينَ بما فيه.

تمَّ بحمدِ الله تعالى المجلَّدُ الحادي عشرَ

ويَليهِ المجلدُ الثَّاني عشرَ وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الرَّعْدِ

الفهرس

"هَذِهِ مُسْوَدَّةُ نُسْخَةٍ إِلِكْتِرُونِيَّةٍ، جَمِيعُ حُقُوقِهَا مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ.

لَا يُسْمَحُ بِنَشْرِهَا أَوْ تَدَاوُلِهَا إِلَّا بِإِذْنٍ كِتَابِيٍّ صَرِيحٍ مِنَ الْمُؤَلِّفِ."

نسخة إلكترونية

المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا